# القسم الأول

# الحياة اليومية

# ـ ١ ـ

# الشعب

## ماذا كانوا؟

كان المصريون القدماء شعبا ذكيا، واجتماعيا، ونشطا، ومسالما. فبالرغم من المصاعب العديدة التى واجهت حضارتهم الفريدة، حافظوا على كبريائهم، وتفاؤلهم وحبهم للحياة. وتمركزت أولوياتهم حول آلهتهم، وعائلاتهم، وعملهم.

وكما أوضحت كتابات كثيرة، فليس هناك شعب من الشعوب القديمة احتفى بالحياة إلى حد بعيد مثل المصريين، كما لم يكن هناك، فى أى زمن فى التاريخ، شعب كرس مثل هذا الاهتمام الكبير للاستعداد للموت. . فكانت الحياة عزيزة عليهم حتى أنهم سعوا إلى إطالتها، والإبقاء عليها عبر الأبدية. ويبدأ الاستعداد للحياة التالية بمجرد أن يولد الشخص. واعتبرت الحياة الأخرى استمرارا لوجودهم المؤقت على الأرض.

ولم تكن الحياة فى مصر القديمة سهلة؛ وبلغ متوسط عمر الشخص العادى نحو ٣٥ عاما بينما يزيد العمر الافتراضى عند أبناء الطبقات العليا؛ الذين توفرت لهم حياة ثرية تخلو من العمل البدنى الشاق، فضلا عن تمتعهم بتغذية أفضل. ويعتقد أن «رعمسيس العظيم» عاش حتى ناهز السادسة والتسعين، بينما عاش «پيپى الثانى»، وهو من فراعنة الأسرة السادسة، حتى بلغ المائة. وكان الفرعون يبقى فى الحكم طوال حياته غالبا، ثم ينتقل إلى وريثه بعد ذلك.

عاشت الآلهة، أو «نيترو»، والمصريون من جميع الطبقات، وفقا لقوانين «ماعت»؛ وهى مفهوم «ربة» تجسد الحقيقة، والنظام، والعدالة. و«ماعت» فى

الأساطير، هى ابنة إله الشمس «رع». وتميزت بريشة النعامة البيضاء التى ترتديها فوق رأسها، وهى تجسد التناغم الذى يسود فى الحياة الحالية والتالية. ولم تكن الحياة متخيلة، بدون وجود «ماعت»؛ ويعاقب القانون على الأعمال المنافية لهذا المفهوم. وليس هناك من حضارة أخرى لم يطرأ تغيرا يذكر على ثقافتها مثل الحضارة المصرية القديمة، كما لم تفعل حضارة أخرى مثلما فعلت للحفاظ على قوانين آداب السلوك، والشرف، والنظام على طول تاريخها.

وانقسم المواطنون إلى خمس طبقات اجتماعية وفقا لمهنهم. وتأتى الأسرة الملكية، بالطبع، أولا، ويتبعها الوزير أو المستشار، وكبار الكهنة، والنبلاء. وتشمل الطبقة الثالثة المسئولين الحكوميين، والكتبة «سيش»، والكهنة، والأطباء، والمهندسين. ويشكل الفنانون، والحرفيون، والجنود، والتجار، والعمال المهرة؛ الطبقة الرابعة. أما أفقر مستويات المجتمع التى تمثل الطبقة الأكثر اتساعا فتشمل العمال غير المهرة، وصيادى السمك، ويتبعهم الخدم، أو «هيمو»، بينما يقبع العبيد فى أدنى قاع السلم الاجتماعى.

وجلب العبيد أساسا من بلاد أجنبية؛ من آسيا، و النوبة، أو القوقاز؛ وربما كانوا من أسرى الحروب، الذين بيعوا بعد ذلك كعبيد. وأجيز للمواطنين أيضا أن يبيعوا أنفسهم كعبيد، كما أجيز لهم أن يشتروا أنفسهم ليتحرروا من العبودية. وعلى أى حال، تمتع العبيد والخدم بمعاملة حسنة، وكانوا يحصلون مقابل أعمالهم على الغذاء والسكن، فضلا عن حصولهم على المؤن من الكتان والزيوت. بل أن بعضهم كان لديه ممتلكاته الخاصة. ويستطيع الشخص من أفقر الطبقات أن يبلغ أعلى المستويات الرسمية بالتعليم المناسب، والتدريب، والإصرار. وهذا ما تدل عليه القصة الشعبية المتوارثة منذ عهد الأسرة التاسعة بعنوان «الفلاح الفصيح».

والقصة تدور حول فلاح(*) كان يتكسب رزقه المتواضع من التجارة فى سلع مثل الملح والأعشاب. ومن هذه التجارة كان يقيم أود أسرته. وكان يمر كل يوم ومعه

(*) يقول الدكتور سليم حسن إن تسمية «الفلاح» أطلقها العلماء تجاوزا، وإن الاسم الحقيقى لبطل هذه القصة فى اللغة المصرية القديمة «ساكن الحقل» أى أنه أحد سكان «حقل الملح» وهو «وادى النطرون حاليًا» ـ موسوعة مصر القديمة، الجزء السابع عشر، الأدب المصرى القديم، سليم حسن، مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٠، ص ٥٤ ـ المترجمة.

حميره المحملة بضاعة عبر نفس الطريق إلى القرى المجاورة. وفى أحد الأيام مر بطريق أحد الموظفين الذى كان قد عزم على أن يطعم أسرته من عمل غير شريف؛ فقام بوضع قطعة من النسيج لسد الطريق الذى يمر منه الفلاح؛ فلم يكن أمام الأخير خيار سوى أن يقود حميره على حافة الطريق، لتدهس حواف حقل الذرة الذى يملكه الموظف. وتشاجر الرجلان؛ وضرب الموظف الفلاح وسرق جميع بضاعته. ولما شعر الفلاح بالمهانة والغضب، وما من شاهد هناك ليساعده، فقدر رفع الأمر إلى كبير الموظفين(*) وشرح له بلواه.

وروى الفلاح قصته بأسلوب غاية فى الوضوح والبلاغة؛ فطلب منه أن يعود فى اليوم التالى، حتى يمكن أن يدون الكتبة الملكيين قصته ليسمعها الفرعون. ومثل الفلاح فى اليوم التالى، والذى يليه لمدة تسعة أيام أخرى، آملا أن يبلغ أمله بتحقيق العدالة. وعندما قرأ كبير الموظفين ما دونه الكتبة من قصة الفلاح، سر الفرعون أيما سرور، بل أنه تأثر بما سمع. وفى نفس الوقت، أمر الملك بالعناية بشئون أسرة الفلاح، دون علمه، مكافأة له على ما قدمه من تسلية، وتعويضا عن محنته.

وفى اليوم العاشر، ثبطت عزيمة الفلاح، وشعر أن كلماته لاقت آذانا صماء. وأيقن كبير الموظفين أنه حان الوقت لكشف دوافع الفرعون الحقيقية ونواياه أمام الفلاح المحبط. وجرد الموظف من ممتلكاته، التى منحت للفلاح مقابل أقواله المفعمة بالحكمة، والنزاهة، والعدل. وأصبح الفلاح فى آخر الأمر، كما تقول القصة، وزيرا من أهل الثقة، ومشرفا مقربا من الفرعون.

والقصة ذات دلالة من حيث أنها توضح إمكانية ترقى أولئك المتعلمين والأكفاء؛ وهو ما يعادل الحصول على شهادة علمية فى عصرنا الحالى. ففى مصر منذ آلاف السنين، مثلما هو الحال اليوم، كانوا يقدرون المواهب. وتشير تقديرات إلى أن عدد المتعلمين فى مصر القديمة تراوح بين ١٪ و٥٪ من عدد السكان، وهى نسبة كبيرة فى عصر كانت الكتابة فيه اختراع حديث؛ وكان عدد كبير من العامة أنصاف متعلمين على الأقل. وما زال هناك دليل على ذلك فى صورة رسوم منقوشة عند المحاجر الصخرية حيث يعمل الناس العاديون وفى القرى حيث يعيشون. وزادت نسبة المتعلمين بين

(*) يطلق عليه الدكتور سليم حسن فى المرجع السابق «المدير العظيم للبيت» وفقا للترجمة عن المصرية القديمة ـ المترجمة.

السكان منذ الأسرة السادسة والعشرين. وتلقى الأولاد العلم على أيدى الكهنة فى مدارس المعابد. وتعين على الطلاب أن يتقنوا نحو ٧٠٠ حرف هيروغليفى، وبنهاية الحقبة الفرعونية، بلغ عدد الرموز المستخدمة فى الكتابة نحو ٥٠٠٠ رمز مختلف.

وحظى الكتبة المحترفون بعدة امتيازات، منها الإعفاء من دفع الضرائب ومن أداء الأعمال اليدوية مدى الحياة. وصاروا من أكثر أعضاء المجتمع احتراما، فلا ينتابهم الخوف من البطالة، لأن هذا المؤهل جعلهم مرشحين للعديد من الوظائف فى خدمة القصر، والنبلاء، ومناصب الإدارة، والجيش، والمعابد، والمصالح الحكومية. وباستطاعة الكاتب أن يصعد إلى مراكز السلطة فى مجالات القانون، والضرائب، والدبلوماسية كما يمكنه أن يصبح معماريا أو مهندسا بارعا. وحظى الكتبة برواتب أفضل من النحاتين، والرسامين، والفنانين.

وتولى الكتبة مهمات عديدة من بينها: تدوين الأنشطة اليومية، والعقود، والبيانات الإحصائية، فضلا عن صياغة المراسلات والنقوش التذكارية. كما تولوا أيضا حفظ سجلات المؤن الغذائية، والتقديرات الضريبية، والتقارير الحكومية، وقوائم جرد البهائم والحبوب، والأحداث المهمة، فضلا عن القياس السنوى للنيل بالغ الأهمية.

وارتقى كاتب مهم وقائد للجيش، يدعى «حور محب»، عاش إبان عصر الدولة الحديثة فى عهد «توت عنخ آمون» من قائد عسكرى إلى فرعون لمصر. ولأن «حور محب» لم يكن له وريث يخلفه، عين قائدا عسكريا آخر ليخلفه هو «رعمسيس الأول» الذى أنشأ الأسرة التاسعة عشرة.

وبخلاف أى حضارة قديمة أخرى، حظيت النساء فى مصر القديمة بالمساواة الكاملة تقريبا مع الرجال. وتمتعن باحترام كبير، حيث الوضع الاجتماعى يحدده مستوى الشخص فى السلم الاجتماعى وليس نوع الجنس. وتمتعت نساء مصر بقدر أكبر من الحرية والحقوق والامتيازات مقارنة بما عرفته نساء الإغريق. وحظى عدد وافر من الربات بالتقديس عبر تاريخ مصر. وكان إظهار عدم الاحترام لامرأة، وفقا لقانون «ماعت»، يعنى معارضة أسس المعتقدات المصرية والوجود المطلق.

وأجاز المصريون للمرأة أن تصبح وريثة للعرش، إلا أن الرجل الذى تختاره زوجا لها هو الذى يصبح حاكما أو فرعونا. وتتمثل مهمتها فى الحفاظ على الدم الملكى واستمراره.

وتمتعت النساء بالعديد من الحقوق القانونية؛ مثل المشاركة فى التعاملات التجارية، وامتلاك الأراضى والعقارات الخاصة، وإدارتها وبيعها. وكان للنساء حق ترتيب عمليات التبنى، وتحرير العبيد، وصياغة التسويات القانونية، وإبرام التعاقدات. وكن يشهدن فى المحاكم، ويقمن الدعاوى ضد أطراف آخرين، ويمثلن أنفسهن فى المنازعات القانونية من دون حضور قريب أو ممثل لها من الرجال.

وفتح باب العديد من الوظائف «المهنية» أمام النساء مثل: النائحة، والنساجة، والخبازة، والقابلة، ومستشارة الفرعون. واستطعن أيضا تولى مناصب عليا فى المعبد، مثل الراقصات أو كبيرة الكاهنات وهو منصب بالغ الاحترام.

ولم يكن مستغربا أو محظورا أن ترتقى امرأة عصامية من ناحية الوضع الاجتماعي أو المنصب. فمن بين النساء الشهيرات من خارج الأسر الملكية امرأة تدعى «نبت» - بكسر النون والباء - كانت متزوجة من حاكم أحد الأقاليم خلال عهد الأسرة السادسة. وقد حملت «نبت» أعلى الألقاب مكانة؛ لقب الحاكم، والقاضى ووزير الفرعون.

وأتيح للنساء العمل كاتبات وطبيبات، وإن كُن بأعداد أقل من نظرائهن الرجال. وترجع السجلات التى ورد فيها أسماء طبيبات إلى الدولة القديمة. ومن هؤلاء الطبيبات السيدة «پيشيشت» التى عاشت إبان عهد الأسرة الخامسة؛ وحملت لقب «رئيسة الأطباء» وفقا للنقش الموجود على شاهد قبرها (فى مقبرة ترجع إلى الدولة القديمة، اكتشفت خلال القرن العشرين من عصرنا) ويعتبر الباحثون السيدة «پيشيشت» أول طبيبة فى التاريخ المدون.

* * *

## ـ ٢ ـ

# الحياة العائلية

حظيت علاقة الزواج بأقصى قدر من الاحترام؛ باعتبارها علاقة مشاركة شريفة. وكان من المفترض أن يحيا الزوج والزوجة على أساس من المساواة، وأن يظهر كل منهما للآخر مشاعر الاهتمام والحب. ويتم الزواج عادة بين شخصين من نفس الطبقة الاجتماعية، غير أن قواعد خاصة تطبق على أفراد الطبقة العليا، وبوجه خاص داخل الأسرة الملكية؛ حيث يجوز للرجل اتخاذ أكثر من زوجة واحدة، كما يحدث الزواج غالبا بين أبناء العمومة وغيرهم من ذوى القربى القريبين (أو البعيدين). وكانت حالات الاقتران بين الأخوة تحدث داخل الأسرة الملكية فقط ـ فتتزوج الابنة الكبرى للفرعون غالبا من شقيقها أو أخيها غير الشقيق ـ بهدف الحفاظ على السلالة الملكية.

وفى مصر القديمة، كان الزوجان يشيران فى حب على بعضهما البعض بلفظ «أخ» أو «أخت». وأثناء الدولة الحديثة، كانت اللفظة «أختى» مرادفا للفظة «عزيزتى» أو «زوجتى». ولا شك أن هذا هو سبب الفهم الحديث الخاطئ أن الزواج بين الأخ وأخته كان منتشرا بين عامة المصريين، من غير الأسرة الملكية.

### زوجة واحدة ـ ثم زوجات

كان للفرعون أن يتخذ زوجة رئيسية، وعدة زوجات أقل مرتبة يتخذهن من بناته أو أخواته، فضلا عن العديد من الخليلات. وكان لدى «رعمسيس الثانى» سبع زوجات أساسيات، وعدة زوجات ثانويات، وجناح للنساء يزخر بالخليلات الشرعيات. ويعتقد أن وجود أجنحة النساء يرجع إلى عصر الأسرات الأولى. فكانت الأميرات

الأجنبيات يصبحن غالبا ضمن حريم الفرعون، كزوجات سياسيات أرسلهن آباؤهن لتعزيز التحالف الدبلوماسى بين الحاكمين. فتزوج «رعمسيس الثانى» ضمن زوجاته الكثيرات (أو حريمه) الأميرة «هيتيتى» من «طرسوس» (تركيا) بهدف تسوية خلافات طال أمدها بين البلدين. وإبان عصر الأسرة الثامنة عشرة، تزوج كل من الفرعون «تحتمس الرابع» و«أمنحتب الأول» أميرتين من «الميتانيات» (من سوريا). واتخذ «أمنحتب» عدة زوجات منهن شقيقة أحد ملوك بابل.

ولم يكن حريم الملك بغرض التسلية أو السياسة فحسب؛ وإنما لإنجاب ورثة ذكور للعرش. غير أنهن ربما جلبن المتاعب أيضا. ومن المعتقد أن أولئك اللاتى ألحقن بحريم «أمنمحعت» تسببن فى القضاء على عهده. كما تسببت إحدى زوجات «رعمسيس الثالث» الثانويات، واسمها «تاى» فى موته (أو على الأقل اعتبرت مسئولة عن وفاته)؛ فخلال السنة الحادية والثلاثين من حكم الفرعون، كان هدفا لما عرف بعد ذلك «مؤامرة الحريم». فقد دبرت «تاى» بمعاونة ٣٢ متآمرة، اغتيال الفرعون حتى يرث ابنها «بينتيوير» العرش. وافتضحت المكيدة الخطيرة قبيل تنفيذها. ومع ذلك، وأثناء المحاكمة التى أعقبت المؤامرة، توفى «رعمسيس الثالث» وألقيت مسئولية التسبب فى موته على عاتق «تاى» وشركائها. وكان من بين الشركاء فى الجريمة عدة نساء من حريم «رعمسيس»، بالإضافة إلى مسئولين حكوميين، وعسكريين، بل وحتى كاهن. وعوقب هؤلاء الرجال والنساء بتشويه وجوههم(*). وقضى البلاط الملكى على بعضهم بأن يقتلوا أنفسهم. واعتلى «رعمسيس الرابع» موقعه الصحيح كوريث للعرش مثلما أراد والده.

وشملت المرشحات للحريم الملكى الراقصات، وغيرهن من الجميلات اللاتى يلفتن نظر الفرعون. ويجوز أن يحسب أبناؤهن ضمن الأسرة الملكية، أو لا، بناء على اختيار الفرعون.

وكانت الفتيات يتزوجن فى سن مبكرة تتراوح بين الثالثة عشرة والخامسة عشرة، وغالبا ما تتزوج بنات الفلاحين فى الثانية عشرة؛ وبوصولهن إلى سن الثلاثين يكن قد أصبحن جدات. وكان المتوقع أن يتخذ الشاب زوجة له بمجرد أن يمتلك السبل المادية لإعالة حياتهما معا وبناء أسرة.

(*) بعقوبة «جدع الأنف» على الأرجح كما سيتبين من سياقات قادمة ـ المترجمة.

وبينما اعتبر اختيار الشريك اختيارا حرا للزوجين عادة ، فإن معظم الارتباطات يرتبها زوج المستقبل مع والد العروس الصغيرة . ومع ذلك ، يتعين موافقة كل من الرجل والمرأة على الزواج ؛ الذى يتم بموجب عقد يجوز إلغاؤه أو إنهاؤه فيما بعد ، بالطلاق . وخلال الحقبة المتأخرة أصبحت لعقود الزواج صياغة متعارف عليها .

وليس هناك دليل يثبت وجود حفلات للزواج فى مصر القديمة . وإنما يقام حفل كبير بعد الزفاف يتلقى فيه المتزوجان حديثا الهدايا ويشاركان مع الأسرة والأصدقاء فى الاحتفال بالزواج . وتنتقل العروس إلى بيت الزوج ، الذى يضم غالبا عائلته أيضا . وتتولى العروس الجديدة دورها باعتبارها «سيدة البيت» أو «نيبت- پر» . و لا يسع المرء سوى أن يتعجب من ناموس الحياة فى تلك الأسر الجديدة ، حيث ينتهى اعتبار الحماة كسيدة لبيتها .

## إلى أن ننفصل

ولم يكن الطلاق شائعا بين المصريين القدماء ، ولكن فى حال حدوثه ، يحق للزوجة السابقة الاحتفاظ بما كانت تملكه عند زواجها بالإضافة إلى ثلث العقارات والممتلكات المشتركة التى كسبها الزوجان أثناء فترة الزواج . وتؤول حضانة الأبناء للأم (مات) . وكان الطلاق فى حد ذاته شأنا بسيطا وخاصا ، يتمثل فى إعلان بإنهاء العقد والارتباط أمام شهود . وبمجرد انتهاء هذا الإجراء يصبح كل من الشريكين حرا فى الزواج مرة أخرى .

وإذا كانت الزوجة غير مخلصة ، لا تستحق المساندة ، بل إنها غالبا ما تخضع لعقوبة جدع الأنف المؤلمة والمشوهة . ومن الطريف أن التعبير عن الحب كان يتم بحك الأنفين معا ، والتعبير الهيروغليفى عن الفرح والسعادة والقبلة عبارة عن رسم جانبى لأنف . ولأن الخيانة من جانب المرأة من شأنها إثارة شكوك حول أبوة الطفل ، فإن النساء تتعرض لعقوبة أشد من عقوبة الرجال بسبب الخيانة .

وفى حالة وفاة الزوج ، تستحق الزوجة ثلثى أملاكهما المشتركة . ويقسم الثلث الباقى بين الأبناء ويليهم أخوة الزوج . وقبل وفاة الرجل ، يجوز له أن يتبنى زوجته كابنة له (سيت) حتى ترث نصيبا أكبر ، ليس فقط كقرينة له ، بل كوريثة أيضا .

اعتبر المصريون إنجاب وريث ذكر مهمة رئيسة للزوجة، ويشكل الفشل فى أدائها سببا للطلاق. وكان الزوجان يشجعان على الإنجاب بمجرد زواجهما. فالأبناء يعتبرون أعظم النعم؛ وكانوا يقولون إن الآلهة تتبسم لأجل أولئك الذين يعولون أسرًا كبيرة العدد. ويمكن لبعض الأسر أن تفاخر بأن لديها ١٠ أو ١٥ طفلا. بينما كانت الآلهة تتجهم فى وجه البيت الذى يخلو من أصوات ضحك الأطفال، وكان من المفترض أن يلجأ الزوجان العقيمان إلى التبنى إذا لزم الأمر، لتعويض النقص. فأى إعجاب واحترام ناله «رعمسيس الثانى»، وهو الذى يروى أنه كان أبا لمائة ابن على الأقل وخمسين ابنة!

وإذا كان لدى الأسرة بالفعل العديد من الأبناء ولا تستطيع أن تعول أكثر، يكون منع الحمل هنا خيارا. وهناك وصفة شعبية لمنع الحمل تتكون من ألياف نباتية مغلفة فى مزيج من العسل واللبن الرائب، وروث التمساح وملح النطرون (ويوجد النطرون فى مستودعات ضخمة من أملاح الصوديوم عند قيعان البحيرات الجافة فى مصر، وبوجه خاص فى الموضع المعروف بوادى النطرون قرب القاهرة الحديثة. وعرف المصريون معالجة النطرون منذ عصور ما قبل الأسرات). وتتكون وصفة أخرى من قطن مغموس فى مزيج من لحاء النخل والسنط. وكان الحمض اللبنى يعمل كمادة فعالة فى قتل الحيوانات المنوية.

وعلى الوجه الآخر، إذا وجد زوجان صعوبة فى الإنجاب، فبإمكانهما اللجوء للسحر. وتشمل طقوسه جلوس المرأة الراغبة فى الحمل فى وضع القرفصاء فوق بخار مزيج من الزيت، والبخور، والتمر، والجعة، فإذا تقيأت من الروائح الناجمة عن هذا الخليط، تعتبر قادرة على الحمل؛ أما إذا لم تتقيأ؛ فيعتقد أن رائحة المزيج حبست داخل جسد المرأة بما يمنعها من الحمل.

ويتضرع الزوجان المحرومان من الإنجاب للإلهات طلبا للعون الإلهى. وتكتب الرسائل وتوضع فوق مقابر الأقارب الراحلين، بأمل أن يستخدم هؤلاء الراحلون تأثيرهم الروحى مع الآلهة. وإذا فشلت كل هذه السبل، يصبح التبنى البديل الأخير. وتوضح السجلات شيوع التبنى خلال عصر الدولة الحديثة.

وكان للأبناء أهمية قصوى؛ فهم يعينون الوالدين عندما يتقدمان فى السن، بينما يضمنون لهما الخلود عبر دفنهما على نحو سليم. وفى حال عجز الزوجين عن إنجاب ذكر يرعاهما عندما يتقدم بهما العمر؛ يجوز للزوج، بموافقة الزوجة، إنجاب ابن من زوجة ثانوية أو ذات منزلة أدنى، وربما تكون خادمة، أو جارية. فإذا جاء الطفل ذكرا، يتبناه الأب وزوجته العاقر. وإذا لم يكن للفرعون أبناء ذكور، تنتقل وراثة العرش إلى الرجل الذى تتزوج منه كبرى بناته، أو إلى ابن «سا» ينجبه الفرعون من زوجة ثانوية. وهذه كانت الحال مع «أخن آتون» الذى أنجب ست بنات ولم ينجب ولدا من زوجته الرئيسة «نفرتيتى».

وغالبا ما تنجب العروس الجديدة خلال العام أو العامين الأولين من الزواج. ويجرى اختبار حمل مبكر بسكب بول المرأة على بذور نبات، فإذا أنبتت كانت المرأة حاملا. وهناك اختبار آخر لمعرفة جنس الجنين، وهو أن تبول المرأة على بذور قمح وشعير، فإذا أنبتت بذور القمح أولا يرجح أن يكون الجنين بنتا، أما إذا أنبت الشعير، يتوقع ولادة طفل ذكر. أما إذا لم ينبت القمح أو الشعير، فلا تكون المرأة حاملا. ولم تكتشف - للأسف - سجلات تشير إلى نسبة نجاح هذه الطرق.

وبالرغم من أن ولادة طفل اعتبر حدثا بالغ البهجة، إلا أنه عرضة أيضا للكثير من المخاطر، حيث كان يعتقد أن النساء الحوامل معرضات لتأثير الأرواح والقوى الشريرة. فبرغم كل شىء ارتفعت نسبة وفيات الأم والطفل معا؛ حيث يتوفى واحد من كل ثلاثة مواليد، أثناء الولادة.

وقبيل مجىء اللحظة المرتقبة، تحظى الأم بأفضل عناية ممكنة، ومعاملة خاصة لمدة أسبوعين بينما تحرسها تمائم للحماية، ووصفات سحرية.

وكانت «تويريت» حارسة وإلهة الأمهات المنتظرات. وهى على صورة جسم أنثى فرس النهر حامل، وأرجل وبراثن أسد، وغطاء للرأس من ذيل التمساح.، وكانت هيئتها، فى صورة تمثال، حاضرة دائما خلال عملية الولادة، حيث يتضرع إليها، وتسأل العون والنجاح فى توليد الطفل. ويساعد «بس» الإله المرح القزم أيضا فى إبعاد الأرواح الشريرة أثناء الولادة. وكانت «حكت» - بكسر الحاء والكاف - الإلهة الضفدع، إلهة الخصوبة والولادة، تستحضر لتسهيل عملية الولادة. وعرفت «حكت» أيضا بأنها القابلة الروحية.

وتلد معظم النساء أطفالهن بينما هن فى وضع القرفصاء، داخل صندوق الولادة فى البيت. وهو صندوق من قوالب الطين بحجم حوض الاستحمام تقريبا، به فتحة عند حافته تسمح بالدخول. وينقش على هذه الصناديق صوراً للمعبودات ذات النفوذ والحارسات، فضلا عن الإلهات المسئولة عن الولادة، لمساعدة الأم على الولادة السليمة. فإذا لم تكن الأسرة قادرة ماديا على الحصول على أحد هذه الصناديق، تلد الأم على سطح المنزل؛ باستخدام صورة متواضعة من صندوق الولادة تتكون من قالبى طوب كبيرين يوضع كل منهما على مسافة من الآخر، فوق منصة آمنة. وفى العديد من المعابد، توجد أبنية تسمى «ماميسوم» بنيت فوق مساحة مقدسة حيث صورت «أوست» (إيزيس) «الأم العظيمة» على جدران المعبد أثناء ولادتها «حيرو» (حورس). وعند «ماميسوم» معبد «دندرة» نقشت صور تمثل الزواج الإلهى بين «حتحور» و«حورس»، الذى نتج عنه ولادة ابنهما «إيحى».

وقام بمعاونة الأم قابلتان، تمثلان الإرشاد الحارس الذى تقدمه «أوست» وشقيقتها «نبت ـ حت» (نفتيس)، وهما تؤديان معا طقس السلامة والشفاء أثناء ولادة الطفل. وفى هذه الأثناء تقرع صفاقات مصنوعة من العاج، تنحت غالبا على شكل الكفوف، لطرد الأرواح الشريرة. وترسم دائرة حامية ذات رموز سحرية حول الأم، وفيما بعد حول الابن، أثناء نومه.

وربما تلد نساء الإقاليم أيضا فى بيت للولادة يسمى «ماميسى». وبعد ولادة ناجحة، تظل الأم بمعزل داخل الماميسى لمدة أسبوعين للنقاهة والتماسا للعناية الخاصة. وبعد ذلك تعد وليمة ويقام احتفال كبير، تتلقى فيه الأم الجديدة العديد من الهدايا.

وخلال السنوات الثلاث الأولى، يرضع الطفل من أمه أو من مرضعة، تلقى عادة احتراما بالغا وتعتبر فردا من الأسرة. وكان معدل وفيات الأطفال مرتفعا، ولم يكن أطفال كثيرون يستمرون على قيد الحياة بعد السنوات الثلاث الأولى عندما يحل الغذاء الصلب محل لبن الأم أو المرضعة، معرضا الطفل لارتفاع مخاطر العدوى والأمراض. وقد اكتشفت أعداداً ضخمة من قبور الأطفال فى سن حوالى الثالثة. وتحتوى جبانة واحدة فى دير المدينة على ما يزيد عن مائة قبر لأطفال.

وعندما يولد وريث للفرعون، يحتفظ بالمشيمة، فقد كان يعتقد أنها طاقة قوى الحياة للطفل الوليد. ولا يكاد يعرف شىء يذكر عن بقاء توائم على قيد الحياة. غير أن هناك

توأما عاشا فى الأسرة الخامسة، اسم الأول «خنموحتب» والثانى «نينخ خنمو» وكانا مرتبطين للغاية أحدهما بالآخر، حتى أنهما دفنا معا فى قبر واسع فى سقارة. ويوضح المشهد المؤثر للأخوين المتعانقين مدى ارتباطهما، وتعلقهما الواحد بأخيه.

## الأطفال هم المستقبل

لم يكن الطفل يعتبر شخصا إلى أن يحدد له اسم، لذا كانت الأسماء تختار وتطلق على الأطفال عقب الولادة مباشرة. . وغالبا ما تعتمد التسمية على أسماء المعبودات، التى يعتقد أنها تحمى الأطفال الذين يحملون أسماءها؛ وعلى سبيل المثال: «ميريت أتون» (محبوبة آتون)، و«سيت آمون» (ابنة آمون)، و «رع حتب» (رع راض). وكثيرا ما تختار الأسماء لتضفى على الأبناء صفات معينة، يرغب فيها الوالدين؛ فعلى سبيل المثال: «نفر حتب» (جميلة وراضية)، و«سينب» (وافر الصحة)، كما شاع إطلاق أسماء تدليل الحيوانات الأليفة على الأبناء، مثل «ميو شيرى» (القطيطة الصغيرة).

وعند وقوع حالة الإجهاض التعيسة، يستطيع الطفل الذى تحدد اسمه بالفعل المرور إلى الحياة الأخرى. فالطفل الذى ليس له اسم لا تعرف هويته، ولن تتذكره الآلهة. وهذا يماثل الموت مرة ثانية دائمة، وهى الوفاة التى يخشاها الناس أكثر من الأولى.

وفى طبقات المجتمع الدنيا تتولى الأم تربية الأطفال؛ بينما فى الطبقات العليا توفر الخادمات الرعاية اليومية للطفل. ويتولى الأبناء مسئولياتهم فى الحياة عند سن مبكرة؛ ويسلك البنين والبنات مسالك مختلفة. فالبنون يتعلمون تجارة أو حرفة من الأب «إت» أو من عضو آخر من أعضاء الأسرة أو من حرفى، أو فنان، أو نجار، أو صانع فخار. ويتوقع من الصبى أن يسير على خطى والده، ويتولى المهمة المقدسة المتمثلة فى أن يمنح الحياة لاسم والده بعد انتقال الأب للعالم الآخر.

أما الفتيات فيتلقين تدريبهن فى البيت، بينما يساعدن فى أعمال المنزل. وعند الحاجة يسهمن أيضا فى العمل بالحقل. وتتعلم الفتيات من أمهاتهن أعمال البيت من طهى، وحياكة، ونسج، وتنظيف. كما يتعلمن فنون العلاج، والرقص، والموسيقى، والغناء. فضلا عن تعلم أساليب التعامل فى الحياة، والتجميل، وتربية الماشية إلى جانب كيفية أن تصبح الفتاة زوجة وأمًا مثالية.

وعند وفاة الأبوين، يرث الابن الأرض، بينما ترث الابنة المجوهرات والأثاث وأدوات المنزل. وإذا لم يكن هناك أبناء فى الأسرة تصبح الابنة مالكة كل شىء.

وكانت أسر الطبقة العليا وحدها هى القادرة على إرسال أبنائها للمدرسة. ويتلقى أبناء الفرعون تعليمهم وتدريباتهم فى فصول دراسية بالقصر الملكى، وغالبا ما يسمح لأطفال مختارين بعناية - عادة من بين أبناء المسئولين والنبلاء - بالدراسة والتعلم مع أبناء الأسرة الملكية. ويتلقى هؤلاء الأطفال المتميزون العلم على أيدى معلم خصوصى، أو كاتب كبير.

أما الأولاد الآخرون من أبناء الطبقة العليا، فلهم من الحظ ما يتيح إرسالهم إلى مدارس المعابد، منذ سن الثامنة تقريبا. وكان الصبية؛ سواء من يتلقون التعليم فى القصر، أو على أيدى كهنة مدارس المعبد، يتعلمون الفضائل مثل، آداب السلوك، والأمانة، والتواضع، وضبط النفس، والاحترام. وتعتبر الكتابة والقراءة والحساب المواد الدراسية الأساس، يليها الديانة والتاريخ والجغرافيا. ومع ذلك، كانت تعاليم مدارس المعابد تميل، بالطبع، إلى التوجهات الدينية أكثر من الأكاديمية. ويدرس العديد من الطلاب الصغار بهدف أن يصبحوا رسامين، أو موظفين حكوميين، أو صناعا، فضلا عن الوظيفة الأكثر احتراما على الإطلاق: الكاتب. ويمكن للطالب أن يؤدى دروسه على «أوستراكا» (ألواح من رقائق الفخار أو الحجر الجيرى) - وقد عثر على العديد من الواجبات المنزلية المكتوبة على هذه الألواح المصنوعة يدويا، ومازالت تصويبات المعلم واضحة عليها. واستخدمت «الأوستراكا» على نحو أوسع من ورق البردى الأكثر تكلفة والذى يحتاج إلى جهد أكبر فى صناعته. وكان حلم كل أب أن يفلت ابنه من مشقة العمل اليدوى، ويصبح كاتبا، حيث فرص الحياة غير المحدودة والمربحة.

وينتهى هذا الفصل بقصة شعبية من مصر القديمة، تصور العلاقة الوثيقة بين الأب والابن، ودروس الحياة التى يتعلمانها. فقد اشتاق الكاهن الأكبر - الابن الحادى عشر لرعمسيس العظيم، «سيتنا خع إم واست»، وزوجته إلى إنجاب ابن. وأمضى الاثنان سنوات فى التضرع إلى الآلهة دون أن تجاب دعواتهما. وفى إحدى الليالى زار الإله الزوجة فى الحلم ولقنها تعويذة تحقق الحمل. فنفذت ما تعلمته، وسرعان ما أصبحت حاملا.

ومرة أخرى تمثل الإله فى حلم ، ولكن للزوج «سيتنا» هذه المرة . وأبلغه أن الطفل لن يكون صبيا عاديا ، ونصحه أن يسميه «سا ـ أوزير» بمعنى ابن أوزير . وبعد خمس سنوات ، أخذ «سينتا» ابنه «سا أوزير» (كما أمر فى الحلم) ليدرس مع الرجال الحكماء فى معبد «بتاح» . وخلال شهور قليلة فحسب ، تمكن الابن من إجادة الكتابة الهيروغليفية بفضل قدراته غير العادية فى هذه السن الصغيرة . وأصبح الطفل أبرع طالب تشهده مدرسة معبد على الإطلاق . وفى أحد الأيام ، كان الطفل فى السابعة من عمره عندما نما إلى سمعه ـ هو ووالده ـ أصوات جلبة خارج بيتهما ، فاندفعا إلى النافذة ، وشاهدا موكبا جنائزيا رائعا لمتوفى من النبلاء ؛ حيث يحمل الكفن المطلى بالذهب موكبا جليلا من مسئولين عسكريين وكهنة معابد ، بينما تنوح ندابات محترفات على طول الموكب . وعلى مسافة قريبة ، تبعته جنازة أخرى ، لم يكن موكبها يتضمن سوى جثمان عامل فقير ، ملفوف فى حصيرة بسيطة من القش ، ويحمله ولداه ، بينما تنوح زوجته وابنته بجواره .

التفت «سيتنا» إلى ابنه قائلا : «حتى فى الموت ، ما أسعد الرجل الغنى !» ، فأجابه الابن فورا : «آمل فقط أن تشارك الرجل الفقير مصيره» . فصدمت هذه الكلمات «سيتنا» وآلمته بشدة .

أخذ الصبى بيد والده وذهب به إلى الطرقات ، ثم أركبه قاربا نيليا أخذهما عبر النيل إلى «مدينة الموتى» ، فى منطقة الصحراء الغربية ؛ حيث دخل الاثنان ، لمشاهدة عالم الموتى بفعل بعض الكلمات السحرية التى رددها الابن الحكيم . وشاهدا أرواح الموتى أثناء محاكمتها ، وعذاب أولئك الذين فشلوا فى امتحانات «ماعت» . وكان هناك رجل يرتدى أحسن أنواع الكتان يقف إلى جوار أوزير (أوزيرس) ، قاضى الموتى ؛ فقال الغلام «أترى تلك الروح المتألقة؟ إنها روح الرجل الفقير ، الذى شاهدناه فى أكثر الجنازات تواضعا» . والرجل يحاكم وفق قوانين «ماعت» وأدت به أعماله الطيبة الكثيرة إلى أن تبوأ المكان الذى يستحقه إلى جوار «أوزير» . وأوضح الولد لأبيه أن الرجل الغنى كان قاسيا فى حياته ويحمل على عاتقه أوزار العديد من التصرفات الأنانية ، لذلك سجن فى العالم السفلى الحافل بالمهالك . ولكون «سا أوزير» حكيما ، فقد عرف مصير المتوفيين ، ولم يكن يتمنى سوى الأفضل لوالده ، عندما دعا له أن يحظى بمصير الرجل الفقير .

## ـ ٣ ـ

# البيوت والأثاث

كانت الصحراء مكانا شديد الحر ومخيفا، بينما الأرض الخصبة ضرورية لنمو المحاصيل. ومن ثم صارت أفضل المواقع السكنية على طول الشريط الضيق من الأرض الذى أطلقوا عليه «خمت» ـ بكسر الخاء والميم ـ قرب النهر الذى لا غنى عنه، مصدر المياه الوحيد، وطريق المرور الرئيسى ـ ولكن لم تكن البيوت تقام فى طريق الحقول. وتدريجيا، ظهرت مستوطنات على الأرض المرتفعة عن السهل المعرض لمياه الفيضان، ولكنها قريبة من الحقول المزروعة. ولأن المساحة محدودة، بنيت المساكن رأسيا وتكونت غالبا من طابقين أو ثلاثة طوابق. وكانت تزاحم بعضها بعضا، وتقع مداخل بعض المنازل على شارع ضيق، بينما يواجه البعض حديقة مسورة. ومازال تخطيط مقبرة ملكية وقرية قديمة فى «دير المدينة»، أنشئتا خلال الأسرة الثامنة عشرة فى الدولة الحديثة، واضحا حتى الآن، وما زالت الجدران المنخفضة باقية. وكانت هذه القرية المقامة على الضفة الغربية من «أواست» (طيبة) موطنا للعمال والصناع الذين شيدوا المقابر الملكية فى «وادى الملوك». وبالرغم من اندثار القرى والبلدات عبر القرون، إلا أنه مازال بالإمكان تحديد تصميمات سبعة عشر بيتا. كما بقيت أيضا آثار كافية فى مدينة «أخت آتون» (العمارنة) تقدم تصورا قيما عن بناء المساكن وتخطيط القرى القديمة.

وخلط المصريون الطمى الناتج من النيل مع القش المفروم، والرمل والحصى، ثم قاموا بصبه فى قوالب خشبية مستطيلة. وعندما يعتق الخليط، عن طريق تعريضه لحرارة الشمس الحارقة عدة أيام، تزال القوالب. واستخدم طوب الطمى المحروق بفعل الشمس، والمعروف باسم «چيبات» لبناء الجدران، التى تغطى بعد ذلك بالطمى

الأملس، وتزين باللون الأبيض أو الألوان الهادئة. وكانت جدران الطوب ملائمة تماما لمناخ مصر، لأنها تجعل المنازل باردة فى الصيف ودافئة فى الشتاء. وقد صورت حرفة صناعة الطوب تصويرا جيدا فى مقبرة ترجع إلى الأسرة الثامنة عشرة لوزير اسمه «رخمير».

ولم يكن يستخدم سوى طوب الطمى لبناء المنازل، سواء كانت لفلاح أو لفرعون. وبنيت معظم هذه المنازل فوق أرض مرتفعة لمنع الأضرار الكبيرة الناجمة عن الفيضان السنوى، ومع ذلك، يحتاج العديد منها إصلاحات عقب الفيضان. وفى آخر الأمر، تنهار المنازل، وتبنى أخرى جديدة فوق أنقاض القديمة.

وخصصت الأحجار لبناء المعابد. بينما ندرت الأخشاب القوية فى مصر، وتعين استيرادها من بلاد أخرى. وكان الطلب مرتفعا على الخشب، لأهميته فى إنتاج العديد من المواد الضرورية، مثل الأبواب، ومصاريع النوافذ، والأقفاص، والأثاث، والتماثيل، والمقاعد، والرماح، والتوابيت.

واستخدم الخشب أيضا فى بناء أسطح منازل القادرين على تكلفتها. وصنعت أفضل الأسطح من جذوع النخل، تكسوه ألواح كبيرة من الطمى. وعاش أبناء الطبقة الفقيرة فى أكواخ من حجرة واحدة يعلوها سطح من أعواد القصب، والقش والنجيل. واستخدمت الأسطح أيضا كأماكن للنوم فى ليالى الصيف الحارة، ويستخدم للوصول إليها سلم يبنى خارج البيت.

عاشت الطبقات الفقيرة - إلى حد بعيد - فى الهواء الطلق، وفى ظروف ضيقة مع أثاث لا يذكر أو بدون أثاث. وتكونت بيوت الطبقة المتوسطة من منزل ذى طابقين تزدان بحديقة متواضعة. بينما قد يشمل مقر إقامة أى من موظفى البلاط ما يصل إلى ٣٠ حجرة. ويوجد على كل من أبواب هذه البيوت نقش يحمل اسم مالك البيت.

أما النوافذ فهى عبارة عن مربعات صغيرة، مرتفعة بحيث تُخفف حرارة الصيف الخانقة، وتمنع الأتربة والأشعة والذباب من دخول المنزل. وتصف النوافذ بحيث يواجه كل منها الآخر، بما يسمح بتنقية تيارات الهواء أو النسيم المتعاكسة. وتسمح الفتحات الموجودة فى سطح البيت أيضا بتدوير الهواء. واستخدمت الحصر المجدولة دون إحكام(*) كحاجب على النافذة لصد سخونة الشمس وأشعتها الحارقة.

(*) بحيث تسمح بثغرات لإدخال الهواء - المترجمة.

وتضم مساكن الطبقة العليا جدرانا مطلية بلوحات جدارية فخمة، أو مزينة بمعلقات نسجية رائعة. بينما الأسقف مزخرفة بسخاء بلوحات جصية تثبتها حدود من حصير القصب، والخشب والحطب. وتكسو طبقات من الطين الأملس مع الجبس الصلب أو رقائق القرميد، الأرضيات التى تحميها وتزينها حصر القش أو الكثير من البسط التى ينسجها نساجات محترفات. بينما يسير الفقراء على أرضيات مصنوعة من التراب المضغوط. وتشكل جذوع النخيل المنحوتة على شكل نباتات، أو أزهار اللوتس، وحزم نبات البردى؛ أعمدة لدعم الأسقف. وغالبا ما يطلى القرميد والجدران بوحدات زخرفية تمثل الحياة البرية والأزهار.

وبحلول الدولة الحديثة، بدأ إنتاج الزجاج على نطاق واسع. وأدى تقدم صناعة الزجاج إلى صناعة رقائق، تكسو بأناقة أرضيات وجدران بيوت الأثرياء.

واتسمت بيوت النبلاء الأثرياء بالروعة البالغة، وتكونت من ثلاثة أو أربعة طوابق، تضم عشرات الغرف، بما فى ذلك أجنحة الضيوف وغرف النوم الرئيسة. وتقع هذه المساكن الفخمة فى الريف أو على أطراف المدن، بينما عاش العمال قرب مواقع المقابر أو الحقول حيث يعملون.

وضمت بيوت الطبقة العليا جناح النساء أو «الحريم» الذى تختار النساء فيه من المصريات أو من بلاد أجنبية. ورغم أن اللفظ «الحريم» يعنى «سكن المنعزلين» إلا أن السيدات لا تقتصر إقامتهن على جناح الحريم، كما لا يحظر على الآخرين الدخول إلى سكنهن الخاص. وشملت أجنحة الحريم العديد من الأنشطة - بالإضافة إلى النشاط المعروف - بما فى ذلك الحياكة واللعب مع الأطفال وتناقل الأخبار بين النساء.

وأحاطت الجدران العالية بيوت الأثرياء وحدائقهم المبهجة الزاخرة بالزهور، التى كانت محل تقدير بسبب عطورها واستخداماتها الكثيرة فضلا عن روعة منظرها. فكانت الزهور تشبك فى الشعر للزينة، وتزين وتعطر البيوت، ومن المعتاد إهداؤها للضيوف فى المآدب تعبيرا عن الترحيب. وكثيرا ما تهدى زهور اللوتس بوجه خاص إلى الآلهة وأقارب المتوفين. وتجمل أوانى الزهور ذات التصميمات المعقدة، والمملوءة بالأزهار متعددة الألوان كل حجرة فى بيوت الموسرين. وتزهو بعض الفيلات بحدائق أو متنزهات تنتظم حول حوض للسباحة، وتنعكس صورها على مياهه، وتكملها ممرات وبرك للسمك يحيطها النخيل، وأشجار الفاكهة والكروم.

وتنتشر فى أنحاء البيت قوائم خشبية أنيقة تحمل أباريق الماء وجرار الخمر. كما تُشَبَّع فتائل مصنوعة من ألياف مجدولة من الكتان أو القطن بالدهن، ثم توضع داخل وعاء يحتوى زيت الخروع أو السمسم. واستخدم الفخار والمرمر والأحجار المجوفة وصحون الطمى المحروق كمصابيح جيدة. وقد عثر على مصباح زيت رائع (مازال به بقايا قليلة من آثار الزيت) ضمن الكنوز العديدة فى مقبرة توت عنخ آمون. وقد نحتت هذه القطعة الفنية من لوح واحد من المرمر وشكلت على صورة نبات اللوتس خارجا من بركة ماء ومعه زهرة أصغر منه حجما على كل جانب من جانبيه.

وفى بيوت الأثرياء، يؤدى المدخل الرئيس إلى ساحة استقبال يجرى فيها الترحيب بالضيوف. ويقع الجزء الخاص بمعيشة الأسرة، والسكن الخاص بالخدم، وحجرات النوم، وحجرات الضيوف فى مؤخرة البيت. وإذا كان المنزل يتكون من أكثر من طابق، يخصص الدور الأول (الأرضى) لشئون العمل و أغراض الترفيه، مثل المآدب والحفلات الساهرة، بينما يقع القسم الخاص بالأسرة فى الطابق الثانى مراعاة للخصوصية. وفى البيوت المكونة من طابق أو اثنين، ترتبط المستويات المختلفة بعضها بالبعض الآخر بواسطة مدرجات أو سلالم، عادة من خارج المنزل. وتقع أملاك الرجل من النبلاء حول الاسطبلات، والأماكن المقدسة، وورش العمل.

وكان وجود الخدم/ الخادمات، أو البستانية، أو عمال النظافة، أو الطهاة، أو الموسيقيين، أو المشرفين على الولائم أو المربيات؛ أمرا ضروريا لجميع بيوت الطبقة العليا. وعاش الخدم فى أقسام خاصة داخل البيوت أو فى أكواخ قريبة منها. وفى الملاحق السكنية كانوا يخبزون الخبز، وينخلون الحبوب، وينسجون القماش، ويخمرون الجعة ويعبئونها فى زجاجات.

وتعين على النساء منهم أن يسرن إلى النيل فى جماعات منهن لجلب المياه اللازمة للشرب، والغسيل، والطهى. وتقوم الخادمات «باكت» برحلات متكررة من هذا النوع حاملات جرار ثقيلة تتوازن على رؤوسهن.

ونظرا لأن عملية الطهى تنتج سخونة وروائح قوية، فمن المعتاد أن يقام المطبخ فى مبنى منفصل وأصغر حجما أو فى مكان محاط بجدار خلف البيت الرئيس. ومعظم المطابخ مجهزة جيدا، وتحتوى على فرن مقبب من الطمى المحروق. وفى البيوت الكبيرة، تجتمع عملية الخبز وعملية التخمير فى نفس المكان.

ولم تكن شوارع مصر القديمة تتمتع بنظام صرف سليم، فاستخدمت القنوات لتصريف المخلفات. وقد مَثَّل التخلص من النفايات مصدراً دائما للقلق.. فكانت قمامة المنازل تكوم فى مقلب للنفايات خارج المدينة وتحرق أو تسوى على الأرض، وقد تبنى مساكن على الموقع فيما بعد. ويتخلص من مياه الصرف إما فى النيل أو فى الأزقة.

ويستحم معظم الناس، خصوصا من أبناء الطبقات الفقيرة، فى النيل، بينما كان البعض قادرا على الاستحمام فى حوض ماء بالبيت. وفى بيوت الأثرياء بنيت المراحيض والحمامات عادة بجوار غرفة النوم. وتكونت مرافق الحمام من حجرة مربعة صغيرة فيها حوض ماء ولوح من الحجر الجيرى، يجلس عليه صاحب البيت بينما يصب الخادم الماء فوقه. وتصرف المياه المتخلفة عن الاستحمام عبر منفذ يشبه الأنبوب، وتفرغ فى الأرض.

وامتلك العديد من أبناء الطبقة العليا أماكن للاستجمام أيضا خارج حدود القرية. وكانت فيلا (بيت) الرجل النبيل تحميها جدران عالية تحوط الاسطبلات، وأجران القمح، والآبار، وكوخ ناظر الأملاك، وورش عمل. وضمت البيوت أيضا مزارات وأماكن للعبادة، تمنح أهل البيت فرصة للتواصل مع الراحلين وسط خصوصية بيوتهم. وحيث تقدم القرابين أيضا إلى تماثيل السلف والآلهة.

واستلزم دخول بيوت الأغنياء وجود مفاتيح من الحديد والبرونز. وقد عثر على مفاتيح يصل مقاسها إلى خمس بوصات، تعود إلى حوالى ١٥٥٠ قبل الميلاد.

ويرجع إنتاج الأثاث الفخم إلى عصر الأسرة الأولى. وكان للكراسى فى بيوت الأثرياء قواعد مصنوعة من السيور الجلدية ولها أرجل خشبية مزينة بإتقان ومنحوتة على هيئة براثن حيوان، مثل الأسد. وعثر فى مقبرة «توت عنخ آمون» على نموذج لكرسى قابل للطى مصنوع بالكامل من العاج وخشب الأبنوس، ذى مقعد ملون مطبوع عليه صورة نمر. وأرجل الكرسى مثبتة بإحكام.

ويعتبر الأثاث المنزلى فى مصر القديمة ضئيل بمقاييس العصر الحالى. وغالبا ما يزخرف الأثاث بصور الحيوانات التى تمثل آلهة معينة. وكانت المقاعد الخشبية والمناضد المنخفضة هى القطع الأكثر شيوعا التى توافرت لدى جميع بيوت الفقراء تقريبا. وقد

تكون المناضد مربعة، أو مستديرة، أو مثلثة، ذات أشكال زخرفية. وبالرغم من أن الخشب كان الأكثر شيوعا فى صناعة المناضد، إلا أن بعضها صنع من الحجر أو المعدن. ولم تكن موائد حجرات الطعام الضخمة مستخدمة فى مصر القديمة، حيث يتناول الناس الطعام على مناضد صغيرة ذات ثلاثة أو أربعة أرجل.

وربما يصنع أثاث قصر الفرعون من الذهب الصلب المطعم بالزجاج الملون والأحجار شبه الكريمة. ووجدت خزائن مصنوعة بإتقان ومنحوتة من خشب الأبنوس لحفظ الملابس ومفارش الأسرة، وأدوات الزينة، والحلى. بينما كان هؤلاء الأقل ثراء يستخدمون سلالا مجدولة لتخزين الأغراض التى يملكونها.

ويعتبر الأثاث الجنائزى للملكة «حتيت فيرس» بالغ الروعة من حيث إتقان الصنعة. وهذه الملكة هى والدة «خوفو» بانى الهرم الأكبر فى الجيزة، خلال عصر الأسرة الرابعة. ويأتى الأثاث الموجود فى مقبرتها فى المرتبة الثانية مباشرة بعد محتويات مقبرة «توت عنخ آمون» من حيث الجمال. وتمثل مقبرة هذه الملكة، المكتشفة عام ١٩٢٥ ميلاديا، الأناقة والرقى فى مستوى المعيشة الملكى. ومن بين نفائس هذه المقبرة سرير ووسادة للرأس، وأريكة ملكية منخفضة الارتفاع، وخزانة لحفظ مفارش الأسِرَّة، وهيكل متنقل لحمل الوعاء «الكانوبى»(*)، وجميعها مصنوعة من الخشب المطلى بالذهب.

ونام أبناء الطبقة الفقيرة على حصر مجدولة، بينما نام الأثرياء على أسرة مصنوعة من خشب الأبنوس المستورد. وصنعت المراتب من سيور الجلد والحبال المضفرة وملاءات مطوية من الكتان الخشن (أرخص ثمنا من الكتان الذى يستعمل فى صناعة الأثواب). ويغطى الإطار الخشبى مستطيل الشكل بالكتان وجلود الحيوانات. وكان السرير يقام على موضع مائل، بحيث يرتفع عند مكان وضع الرأس. وغالبا ما كانت أرجل السرير تشكل على هيئة أقدام الحيوانات، كالثور مثلا.

وعندما يحين وقت الراحة، يستخدم المصريون القدماء مساند للرأس مزخرفة هلالية الشكل (تسمى ويرز)، كانت تصنع من الخشب أو العاج، أو المرمر البارد بالنسبة للأثرياء (بينما يستخدم الفقراء نسخة متواضعة مصنوعة من الفخار). ولما كانت

(*) وعاء فخارى كان المصريون القدماء يستخدمونه لحفظ أحشاء الموتى ـ المترجمة.

هذه المساند غير مريحة للنوم فعليا، فربما استخدمت وسائد خفيفة من الكتان الخشن المحشو للنوم المريح ليلا. وكان المعتقد أن مساند الرأس تساعد فى جلب النوم الهادئ عن طريق حماية النائم من الحشرات الزاحفة على الأرض، ونقشت صور الآلهة الحارسة على هذه المساند للمساعدة فى طرد الأرواح الشريرة التى كان يعتقد أنها تجلب الكوابيس. واستخدمت مساند الرأس أيضا فى التحنيط والأغراض الجنائزية. وكان يعتقد أنها تحمى رأس المتوفى.

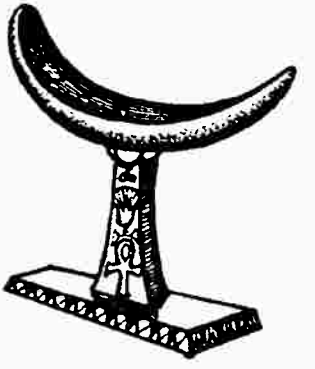

## ـ ٤ ـ

# الطعام والشراب

تكون معظم طعام المصريين من محاصيل حبوب تنمو فى الحقول. فقد حولوا القمح القاسى والشعير إلى خبز وجعة، وهو الغذاء الرئيس لهم. وتظهر لوحات منحوتة متكررة من الدولة القديمة عمالا يصنعون الخبز والجعة، بينما تحتوى لوحات فى مقابر بسقارة على مناظر للرعى، والقنص، وصيد الأسماك. وتوضح لوحة من النقش البارز فى مقبرة كاتب حقل من الأسرة الثامنة عشرة يدعى «مينا»، فى «أواست»؛ كيف كانوا يعملون فى الحقول ويدرسون القمح باستخدام الماشية، والأغنام، والحمير.

ويبدو أن أول خبز مخمر فى العالم ظهر فى مصر القديمة، وكذلك أول الأفران المصنوعة من الطين. وبحلول عصر الدولة الحديثة، كان المصريون يستخدمون أربعين نوعا مختلفا من الخبز، المضاف إليه التين، أو العسل، أو المتبل بالأعشاب أو البهارات مثل السمسم والكزبرة واليانسون. وكان كعك الخبز يشكل على هيئة أرغفة مفلطحة أو مخروطية أو مربعة أو مستديرة.، كما يظهر فى نقش بارز يرجع إلى الدولة القديمة. واستخدم أبناء الطبقتين العليا والمتوسطة القمح، بينما استخدم الفقراء كعك الشعير بديلا له. وأثناء عملية الطحن، حيث تستخدم بلاطات من الحجر لسحق الحبوب، كانت حبيبات من الرمل والصخر تجد طريقها للطحين؛ الأمر الذى تسبب فى تدهور أسنان الناس سريعا، كما يمكن أن نرى بفحص المومياوات.

وفرضت الأعراف الدينية على الأسر ترك طعام وغذاء فى المقابر لتغذية الراحل فى الحياة الأخرى. وبفضل جفاف المناخ، ظلت بقايا من هذه القرابين حتى الآن، وقام العلماء بتحليل مخلفات أوعية فخارية تم العثور عليها ضمن أنقاض قرى قديمة.

## ليس بالخبز وحده!

عرف المصريون أطعمة متنوعة، منها الأرز، بالإضافة إلى الحبوب التى سبق ذكرها، والفاكهة والخضروات مثل الخس، والخيار، والسبانخ، والفجل، والجزر، واللفت، والبصل، والكراث، والبلح، والعنب، والبطيخ، واليقطين، والتين والرمان. وحصلوا على البروتين من العدس، والفول، والحمص، واللحوم، مثل لحم الثور، والخنزير، والغنم. وتأتى اللحوم الأكثر شعبية من الحمام، والبط، والإوز، و السمان. وكانت الطيور إما تسلق أو تشوى، وغالبا ما تستخدم أحشاؤها فى الوصفات الطبية. وقد صورت عملية صيد الطيور على جدران مقبرة أميرة تدعى «إيتت» (الأسرة الرابعة)، زوجة «نفر ماعت» ابن الفرعون ووزيره، فى «ميدوم». ويظهر فى اللوحة رجلان منحنيان وهما يجران حبالا مربوطة بشبكة مطبقة على عدة طيور وقعت فى الشرك. ومن الصحراء يجىء الوعول والغزلان، التى يتمتعون بلحمها فى المناسبات. وغالبا ما يقدم الكرنب النيئ كفاتح للشهية قبل الوجبات، لما كان يعتقد من أنه يزيد الرغبة فى الخمر، فضلا عن أنه يشجع على الإفراط فى الشرب!.

وفى الأسر العادية، تولت النساء مهمة الطهى، فى مكان مسور خلف البيت. أما فى بيوت الطبقة العليا، فالخدم هم الذين يعدون الطعام، إما مطهوا بالغليان البطىء، أو مقليا، أو محمصا، أو مخللا، أو مسلوقا، أو مخبوزا فى الأفران المصنوعة من الطين، أو مشويا على النار مباشرة. ويضاف لمعظم أنواع الطعام نكهة قوية باستخدام الثوم أو البصل، كما يتبل جيدا بالبهارات مثل الملح، والكزبرة، والمردقوش، والكمون، والزعتر. وشاع استخدام الثوم، حيث كان يعتقد (وهو ما ثبتت صحته الآن) فى احتوائه على خصائص مقاومة للأمراض. وأخذت الدهون اللازمة للطعام من اللحوم، واستخلصت الزيوت من بذور الجرجير، ونبات الخروع، والسمسم. واعتبر جوز الهند ترفا، و الماندراك(*) فاكهة العاطفة. واعتبر الخس، بسبب عصارته اللطيفة، منشطا جنسيا يقوى الخصوبة.

وجذبت الحدائق المزهرة فى بيوت الأغنياء النحل الذى يفرز العسل. واستخدم العسل فى تحلية الطعام والمشروبات، وصناعة الحلوى. كما استخدم كرمز للبعث، حيث مثل العسل الدموع التى ذرفها الإله «رع»، وولد منها الإنسان. وهناك أسطورة

(*) نبات ذو تأثير مهدئ ـ المترجمة.

مشابهة تجعل العسل رمزا لدموع «رع» عندما بكى تأثرا بالخلق المجيد للبشرية. بينما استخدم الفقراء عصير الفاكهة والبلح لأغراض التحلية. وازدهر نخيل البلح فى أنحاء المنطقة منتجا ثمارا وفيرة.

وعرفت القلة امتياز تذوق لحم البقر، حيث لم تكن الماشية مكلفة من حيث تغذيتها فحسب، وإنما بسبب الضرائب الباهظة المفروضة عليها أيضا. وغالبا ما كان البقر يربى من أجل إدرار اللبن فقط، أو كأضاحى للآلهة. واعتبر العديد من الناس البقرة حيوانا مقدسا، لم يأكلوا لحمها أبدا، احتراما للبقرة المبجلة إلهة الفرح والموسيقى والاحتفال «حت ـ حيرو» (حتحور). ومع ذلك، توضح المناظر المصورة فى مقبرة «بتاح إى روك» المشرف على المجزر، فى سقارة، أربعة رجال يذبحون ثورا. ونشاهد فى مقبرة صغيرة فى «أواست» لرجل اسمه «دمر كا رع سنوب»، ترجع إلى الأسرة الثامنة عشرة، لوحة تصور جزارا يقطع رأس ثور، بينما يمسك مساعده أرجل الحيوان.

ومثل لحم البقر، كانت لحوم العجول، والبقر الوحشى، والغزلان، والفواكه، واللحوم المحلاة بالعسل؛ تقدم على موائد الأغنياء. واعتبر لحم الإوز المشوى على النار مباشرة، طبقا مفضلا. وعرف منذ عصور مبكرة استهلاك لحوم الطيور البرية الشعبية للغاية، والسمك المتوافر بكثرة؛ ويصاد بشباك الصيد أو الصنارات. وقد عثر على بعض صنارات الصيد التى ترجع إلى عصر ما قبل الأسرات. وفى مقبرة نحات اسمه «إيبى» فى «أواست»، ترجع إلى الأسرة التاسعة عشرة؛ لوحة تصور رجلين يجران شبكة صيد يفترض أنها مليئة بالسمك.

وشاع تناول السمك كطعام لدى الطبقة الدنيا، بينما اعتبره الأغنياء «غير نظيف» ومن ثم يحظر أكله. ويرجع ذلك على الأرجح لرائحته القوية ـ حيث ارتبطت الروائح غير المستحبة بالإثم والخطايا. وتجنب المخلصون لأوزير أيضا السمك، بسبب الأسطورة التى تقول إن سمكة ابتلعت القطعة المفقودة من جسده ممزق الأوصال، عندما ألقى به «ست» ورجاله، فى النيل. ولم يكن كهنة المعابد يأكلون السمك أبدا ولا يقدمونه كقرابين للآلهة. وفى الواقع، كان رمز الشىء البغيض والمحرم فى الهيروغليفية . . سمكة! . واعتبر الخنزير أيضا «غير نظيف» وارتبط بالإله «ست» المخيف . ، الذى يصور غالبا على هيئة خنزير أسود. ومن ثم حرم تناول لحم الخنزير ، خاصة ضمن جماعة الكهنة. وحظر تناول لحم الغنم أيضا ، باستثناء فى «زاوتى»،

حيث كان يؤكل من باب الاحترام للذئاب التى عبدت فى تلك المنطقة. (أطلق الإغريق على «زاوتى» لقب «ليكوبوليس» الذى يعنى «مدينة الذئاب»).

وكانت القرابين تقدم باستمرار إلى الآلهة بغرض الحفاظ على علاقة مودة واتصال مفتوح معها. وبعد أن يتغذى الآلهة على الجوهر الروحى لهذه القرابين، يتناول الكهنة الطعام المقدس لاحقا.

وتناول المصريون طعامهم على موائد صغيرة قريبة من الأرض( يبلغ ارتفاعها نحو ست بوصات). وتغسل الأيدى قبل الأكل وبعده، ولم تكن تستخدم سكاكين للمائدة. ومع ذلك، عثر على ملاعق مزخرفة بأناقة من العاج، والعظم، والبرونز، والخشب؛ والأرجح أنها كانت تستخدم لصب الشوربة وغيرها من السوائل. ولم يكن المصريون يستخدمون فى الأكل سوى أصابع الإبهام والسبابة والوسطى. واعتبر تناول الطعام بالأصابع الأخرى سوء سلوك، ودلالة على انخفاض المستوى الاجتماعى. وصنعت الأطباق من البرونز، أو الفضة، أو الذهب. أما الفقراء فاستخدموا الفخار العادى أو المصقول. وحظى الفخار بتقدير كبير بسبب استخداماته العديدة فى الطهى، وتقديم الطعام، وحفظه. فضلا عن ملاءمته تماما للاستخدام فى الأفران الطينية، وعلى النار المباشرة. وحول المصريون روث الأبقار والخشب إلى وقود لازم للطهى.

وخزن الطعام والماء فى جرار كبيرة من الطين. وغالبا ما يحمل الماء الذى يجلب من الآبار فى جلود الحيوانات. وقد عثر على العديد من الآبار فى «پير ـ رعمسيس» ترجع إلى عصر الدولة الحديثة. وكانت المياه ترفع من النيل برافعة تسمى «شادوف»، وهى عبارة عن عمود بسيط أو عارضة خشبية يربط فى أحد طرفيها حبل فى نهايته دلو، وفى الطرف الآخر ثقل موازن. ومازال الشادوف يستخدم حتى الآن فى رى الأرض.

وحظى اللبن، الذى سمى «إرتيت» بإجلال بالغ وكان مخصصا لأوست(*)، حيث اعتبر زادا للروح.

## زجاجة نبيذ، فاكهة الكرمة

تعتبر اللفظة الدالة على النبيذ طريفة للغاية.. «إرب». ويرجع استخدام النبيذ إلى

(*) ذكرت المؤلفة سابقا أن «أوست» هى الإلهة إيزيس ـ المترجمة.

عصور ضاربة فى القدم، وقد استخدم أصلا لأغراض دينية صرف، ولم يكن يسمح باحتسائه سوى للبالغين.

وخصصت أنواع النبيذ الحلو القاتم، أساسا لإيزيس، واعتبرت هذه الأنواع محتوية على خصائص طبية. ومع ذلك، كان السكر أمرا بالغ التحريم فى احتفالات معبدها. كما ارتبطت الإلهة اللطيفة «باست» ذات رأس القط، بالشرب والسكر، ويروى أنه خلال أحد احتفالاتها فى مدينة «بير ـ باست» استهلك الناس من الخمر أكثر مما استهلك خلال بقية العام بأكمله. وتفاخر «رعمسيس الثالث» (الأسرة العشرون) بأنه قدم لآمون ٢٠٠٧٨ جرة نبيذ، وقدم ٣٩٥١٠ جرة أخرى فى احتفالات دينية.

وكان إنتاج النبيذ يكلف الكثير من الوقت والمال، ومن ثم لم يكن متاحا سوى للأغنياء وامتلك العديد من الأسر الغنية بساتين الكروم الخاصة بها، لكنهم كانوا يجلبون أيضا أنواع النبيذ وعصير العنب غير المخمر من الواحة البحرية فى الصحراء الغربية، ومن منطقة الفيوم (كروكوديلوبوليس). كما جاءت أنواع العنب الممتاز من أراضى الدلتا وأيضا من على طول سواحل البحر المتوسط. وأنتجت هذه المناطق المثمرة خمسة أنواع من العنب. وترجع قوارير النبيذ إلى عصر الأسرة الأولى، حيث كانت تصنف وفقا للأختام الموضوعة عليها، والتى توضح مدى جودة النبيذ ومدة تعتيقه، فضلا عن المنطقة الجغرافية التى جاء منها العنب.

وعند صناعة النبيذ، يهرس العنب ويعصر بوضعه فى كيس، يلف على قائمين خشبيين، يدار كل منهما بعكس الآخر، ويفرغ العصير المستخلص فى وعاء موضوع تحت الكيس. كما يهرس العنب أيضا بالضغط باليد والقدم. وفى مقبرة ضابط من عصر الأسرة الثامنة عشرة يدعى «نيب آمون»، فى «أواست» رسما لرجلين يجمعان العنب لإنتاج النبيذ. يقف أحد الرجلين، بينما ينحنى الثانى، وهما يقذفان العنب فى السلال. وداخل حجرة دفن أحد حكام المدن، واسمه «سن نفر»، من عصر نفس الأسرة، رسم فنان بارع مجموعة من أوراق وعناقيد العنب مترابطة عبر الكروم التى يبدو أنها صاعدة من الأرض حتى السقف. وفى مقبرة «أوشر حت» المسئول والكاتب فى القصر الملكى (الأسرة الثامنة عشرة) فى أواست، يظهر مشهد هرس العنب، حيث يدوس ستة من الرجال العنب بأقدامهم بينما يتعلقون بفروع من سطح المكان للارتكاز عليها وحفظ توازنهم. ونقش على جدران مقبرة مغنية اسمها «نفر» فى سقارة (الأسرة

الخامسة) مشهداً آخر لعصر العنب، وهنا نرى كيسا كبيرا يتم لفه بواسطة رجال يحملون عصيا خشبية، بينما ينسكب العصير فى وعاء ضخم.

وتحلى أنواع النبيذ المفضلة وتمزج بالعسل أو عصير البلح أو الرمان. وتحتسى هذه الأنواع فى أقداح من البرونز أو الزجاج. وأنتج المصريون أنواع النبيذ الأساسية الثلاثة من عصير العنب أو البلح أو سعف النخل ويبدو أن النبيذ الأحمر كان الأكثر انتشارا خلال عصر الدولة القديمة؛ غير أن النبيذ الأبيض أصبح نبيذ الصفوة منذ عصر الدولة الوسيطة وما بعدها. وكان المصريون أيضا أول من مزج النبيذ الأحمر بالأبيض لعمل النبيذ الوردى. وخلال عصر الدولة الحديثة، صارت عدة أنواع من النبيذ تمزج معا.

## دورة أخرى من الجعة

اعتبرت الجعة، أو «هنكت»، المشروب القومى الأول. وأقر الإغريق بأن المصريين أول من ابتكر هذا الشراب. وتقول الأسطورة إن «أوزيريس» علمهم طريقة صنع الجعة من القمح القاسى والشعير، وتحليتها بإضافة البلح. ومثلما هو الحال مع الخبز والنبيذ، جرى تخمير عدة أنواع من الجعة بنكهات مختلفة ودرجات قوة متباينة. ويبدو أن الجعة القاتمة كانت أكثر شيوعا من الأنواع الخفيفة. وبلغ من شعبية هذا المشروب أن الأطفال يأخذونه معهم إلى المدرسة ضمن وجباتهم (لا شك أن هذا ينطبق على الأنواع ذات نسبة الكحول الخفيفة).

وركزت إحدى الأساطير الرائعة العديدة، التى توارثها الناس عبر آلاف السنين على شرب الجعة وتأثيراته على القدرة على التهدئة والتسكين وتحسين الحالة المزاجية. وتبدأ الأسطورة حين شاخ إله الشمس «رع» عندما كان فرعونا بشريا على الأرض. فاستهان به شعبه ـ واعتبره حاكما عجوزا، واهنا وضعيفا. وشعر «رع» بخيانة البشر له. كيف تسنى لهم ألا يحترمونه؟ فالمصريون رغم كل شىء ولدوا من دموعه. ولشعوره بالألم والغضب، سعى إلى مشورة الآلهة، الذين نصحوه بأن يوجه عينه الجبارة ضد البشر كعقوبة فى صورة ابنته الإلهة «سخمت» الرهيبة.

وعندما سلط «رع» نظرته القوية على شعب مصر، ظهرت «سخمت»، فواصلت الإلهة المنتقمة الهياج؛ ذبحا فى البشر، وشربا من دمائهم. واستمر هذا التدمير عدة

ليال، حتى فاض النيل باللون الأحمر. وبدأ «رع» يشعر بالشفقة على الناس الذين هلك العديد منهم بسبب ثورة «سخمت». وتملك «رع» الندم العميق لأنه خلقها. وتوسل إليها لتوقف دمارها، إلا أن شهيتها زادت للدم. وعندما أحس «رع» باليأس منها، قرر أن يتولى الأمر بنفسه. فبعث رسله إلى بلدة «آبو» ليحضروا له نباتات الماندراك، وأكسيد الحديد الأحمر، وهى منتجات اشتهرت بها هذه البلدة. وأمر النساء بتخمير كل ما يستطيعونه من جعة؛ حتى امتلأت سبع آلاف جرة. وأمر الرجال بأن يمزجوا الجعة بالماندراك وأكسيد الحديد الأحمر. وسكب هذا المزيج على كل الأرض التى عاثت فيها «سخمت» تخريبا.

ثم جاء اليوم الذى ألقت فيه «سخمت» بصرها على المنطقة التى ألحقت بها الضرر الشديد. فوقعت فى هوى صورتها القرمزية، وشرعت فى شرب الجعة المصبوغة باللون الأحمر. وسرعان ما أصبحت ثملة تماما وغلبها النوم. وخلال هذه الفترة تراجعت ميولها العنيفة والتدميرية، حتى تلاشت تماما. (وهناك أساطير أخرى تحكى أن «رع» سلب منها قواها، مثلما منحها إياها).

وعندما استيقظت «سخمت»، كانت رغبتها فى القتل قد انتهت. وغير «رع» اسمها إلى «حت-حيرو» الإلهة ذات رأس البقرة. وتقول أساطير أخرى أن «سخمت» أصبحت «باست» الإلهة ذات رأس القطة. وكلا من «حت-حيرو» و«باست» إلهة رقيقة للحب، والسرور، والسكر. وظلت «سخمت» إلهة الدمار فى تاريخ وأساطير مصر القديمة. وصار من الممكن التوسل بسلطتها لفائدة البشر، بطرد الشر والمرض.

ومنذ ذلك اليوم، ظل كهنة «حيت-حيرو» يشربون الجعة المصبوغة باللون الأحمر، على شرفها، خلال مهرجان السكر السنوى الذى يقع فى الشهر الأول من موسم الفيضان. ويشرب الناس هذه الجعة بفرح خاص، حيث أنقذ هذا المشروب قبلا البشرية من وحشية «سخمت»، الإلهة الأقوى.

***

## ـ ٥ ـ

# الملابس والحلى

### الملابس السائدة

مثلما هو الحال الآن، كرست الطبقة العليا وقتا واهتماما كبيرين لمظهرها، بينما لم يكن لدى الطبقة الفقيرة نفس الاهتمام. وتباهى الرجال بأنهم على نفس قدر الأناقة الذى لدى النساء، إن لم يكن أكثر. ومع ذلك، ظلت قواعد الملبس ثابتة دون تغير خلال تاريخ مصر المبكر. وكانت الجونلة أو التنورة الخفيفة هى الزى الرئيس للرجال. وكان زى الفلاحين عبارة عن قطعة قماش حول الخصر أو جونلة قصيرة مصنوعة من قطعة مستطيلة من قماش الكتان تلف حول الفخذين؛ بينما يسير الرجال بوجه عام، وصدورهم عارية. وظلت هذه التنورة زيا سائدا للفلاحين، والخدم، والكتبة، خلال التاريخ المصرى. وفى القطاعات الأكثر ثراء، طال الثوب تدريجيا حتى منتصف الساق. وتطور بمرور الوقت، وبحلول عصر الدولة الوسيطة، تدلى حتى الكاحل، مع إضافة طبقة ثانية للتنورة؛ وترك الجزء العلوى من الجسد عاريا. وفى عصر الدولة الحديثة، أضيفت طيات صغيرة عمودية مزخرفة، ذات شراريب تحاك عند الحواف. بينما ارتدت النساء ثوبا طويلا، ضيقا، محكما على الجسم، يربط من الخلف عند الرقبة أو الكتفين، وينسدل من تحت الذراعين.

وخلال شهور الصيف الحارة، كان العبيد وجامعو الحطب، وصانعو الطوب، وصيادو السمك، والمراكبية والأطفال يرتدون القليل من الملابس أو لا يرتدون شيئا على الإطلاق. فلم يكن العرى مشكلة فى تلك الأيام.

وكان نسيج الكتان هو المفضل للملابس، بسبب نوعيته الخفيفة والرقيقة، وسهولته فى الحركة. وهو يصنع من ألياف نبات الكتان، الذى ينمو بوفرة على ضفتى النيل. وتحصد أعواد النبات فى ذروة إزهاره. وتتولى النساء تجهيز وغزل خيوط الكتان بدقة، ومن ثم تتحول إلى نسيج فى ورش خاصة، لصناعة الملابس الأنيقة. واستخدم التطريز على نحو واسع، لإضافة حواف رقيقة غاية فى الذوق وذات شراريب للثوب. وبالنسبة لملابس الأسرة الملكية، يجدل الخيط وينسج مع خيوط من الذهب.

وفى عصور ما قبل الأسرات، صنعت السكاكين من الحجر، ونحتت إبر الخياطة من العظم. وخلال عهد الدولة القديمة، صنع كلاهما من النحاس؛ وبحلول عصر الدولة المتوسطة، صنعت السكاكين وإبر الخياطة من البرونز.

وتباينت نوعية نسيج الملابس بين مختلف الطبقات الاجتماعية. فاستخدم الفلاحون غالبا نوعا أكثر سمكا من النسيج، سواء الكتان الخشن والأرخص تكلفة أو الصوف. وقد اعتبر صوف الماعز أو الغنم غير نظيف، ومن ثم، نادرا ما استخدم كملبس للإنسان. وعندما يستخدم لهذا الغرض، لا يلامس بشرة مصرى؛ ولكن فى الليالى الباردة وخلال شهور الصقيع، كانت عباءة من الصوف ترتدى لجلب الدفء فوق الثوب الكتانى سواء للرجل أو المرأة.

وكان زى الطبقة العليا السائد، عبارة عن ثوب صنع من أجود أنواع الكتان, وأنصعها بياضا، لتأثيرها الملطف فى الجو الحار. أما الزى الملكى للفرعون فهو جونلة مزينة بذيل أسد. وأثناء الاحتفالات، يوضع جلد نمر على كتف الفرعون.

وبالرغم من أن اللون الأبيض كان المفضل، صبغت الملابس أحيانا بصبغة يأخذونها من نبات العصفر للحصول على لون أصفر خفيف، أو مقارب للحمرة. وشاع ذلك مع الملابس المكونة من طبقتين أو أكثر. ويبدو أن الملابس الملونة كان يستخدمها الأجانب والأسرة الملكية المصرية.

ويبدو النفوذ الأجنبى فى اتجاهات الزى السائدة فى الدولة الحديثة، عندما بدأت الملابس الملونة فى الظهور، وزخرفت ملابس النساء بطبقة من القماش المطرز بالخرز. وشبكت أيضا أحجار صغيرة و أصداف عند الحواف. وبحلول ذلك العصر أيضا، حل النول الرأسى محل النول الأفقى، الأمر الذى جعل التصميمات الملونة أيسر. وتطلب تشغيل هذا النول قوة أكثر، وهكذا بدأ الرجال يحلون محل النساء فى ورش النسيج.

وعاش المصريون حفاة حتى وهم يرتدون أكثر الأثواب أناقة؛ غير أن الصندل أو «تچيبت» أصبح سائدا خلال عصر ازدهار الدولة الحديثة. وارتدى الناس العاديون صنادل مصنوعة من أوراق البردى أو أوراق النخيل المجدولة، بينما استخدمت الطبقات الفقيرة صنادل مصنوعة من النجيل والقصب. وفى المناسبات الخاصة (ولكن ليس فى حضور فرعون أو صورة لإله)، ارتدى الأغنياء صنادل مصنوعة من الجلد المدبوغ أو غير المدبوغ، مزخرفة بإتقان، وذات سيور بين الأصبع الأكبر للقدم والذى يليه. وغالبا ما زينت صنادل الفراعنة المنتصرين بمناظر للأعداء المغلوبين، حتى يتحقق تأثير السيطرة الكاملة حرفيا «السير فوق الأعداء».

وعثر على زوج من الشبشب الجنائزى، رائع مطلى بالذهب خاص بزوجة تحتمس الثالث السورية، يشبه الصندل العادى المصنوع من الجلد المدبوغ، وهومزخرف برسم الأزهار عند موضع كعب القدم. وفى مقبرة «توت عنخ آمون» عثر على زوج صندل ذهبى رائع فى حالة سليمة، ذو نعلين مضلعين رسم عليهما صورة أسرى مكبلين. كما عثر على زوج صندل آخر مطلى بالذهب مدفونا ضمن الأغراض المدفونة فى مقبرة الفرعون «شيشنق الثانى».

## الحلى

شاع استعمال الحلى للغاية فى أنحاء مصر، وارتداها الرجال والنساء والأطفال من مختلف الطبقات الاجتماعية. واستخدمت كزينة شخصية، كما استخدمت فى الأعمال الجنائزية، لإضافة لون إلى الثوب الكتانى الأبيض الفاتح، وبما يشير إلى مرتبة المتوفى. كما استخدمت الحلى أيضا لأغراض السحر فى صورة تمائم رمزية حارسة.

وخلال عصر ما قبل الأسرات، كانت الحلى تصنع من الصدف الذى يجلب من البحر الأحمر. واستخدمت أيضا الأحجار، وأنياب الحيوانات، والأسنان والعظام لإنتاج حلى رائعة للزينة. وارتدى كل من الأحياء والموتى التمائم الحارسة، فقد كان يعتقد أن تأثيرات شريرة وأمراض معينة يمكن طردها بارتداء قطع معينة من الحلى منقوش عليها تعاويذ الحماية. وكانت هناك تعاويذ تهدف للحصول على، أو تحقيق البقاء، والصحة، والاستقرار والشباب والغنى.

ولم تكن أحجار الكوارتز، واليشب، والعقيق جذابة فحسب، وإنما ترتدى أيضا بسبب القوى الخارقة التى يعتقد أن هذه الأحجار تحوزها. كما كان يعتقد أن هذه التمائم تحتوى على خواص شفاء يصبح لها فعل السحر، عندما ترتدى بتركيب معين وبألوان محددة. وكثيرا ما ارتدى الأطفال «دلايات» معينة على هيئة سمكة لتوفر لهم الحماية من الغرق.

ولم تكن الأحجار الكريمة مثل الألماس والياقوت معروفة لدى قدماء المصريين. بينما اعتبر حجر اللازورد من أكثر الأحجار شعبية واحتراما، حيث اعتبرت درجة زرقته العميقة مع شوائبه الذهبية رمزا للسماء ذات النجوم. وكثيرا ما استورد المصريون أحجار الجشمت، والأونكس(*)، والعقيق، والعقيق الأحمر التى كانوا يقدرونها للغاية.

وارتدت الطبقات الدنيا حليا مصنوعة من النحاس والخزف ـ بديلا عن اللازورد. وحتى أفقر الفلاحين وجدوا ما يتحلون به؛ فارتدوا حليا من الزجاج الأزرق، أو حتى جدائل من الأزهار البرية.

وغالبا ما يرتدى الأثرياء أساور معصم واسعة، وخلاخيل، وأساور أذرع، وقلائد، وأطواق للرقبة مطعمة بأحجار شبه كريمة. وقد وضع الملك «توت عنخ آمون» ثلاثة عشر سوارا على ساعديه؛ سبعة فى الساعد الأيمن وستة فى الأيسر، كما صنعت أساور مدهشة مثل التى تخص «رعمسيس الثانى» بدبابيس ومفاصل متحركة لتيسير ارتدائها وخلعها من المعصم.

وخلال عصر الدولة الحديثة بوجه خاص؛ ارتدى أعضاء الأسر الملكية صدريات على صدورهم. وصنعت أيضا أطواق مطعمة بالمجوهرات أو الخرز (سميت «وى سخ») وأطواق أثقل وزنا (مينات) صنعت من الخرز مستدير أو بيضاوى الشكل، توازن ـ من على الظهر ـ بثقل زخرفى مواز، ويلبسها رجال ونساء طبقة النبلاء والأسرة الملكية. واعتبرت «مينات» المصنوعة من المعدن، أو الزجاج، أو الأحجار أو الخزف؛ مكرسة على نحو أكبر للإلهة «حتحور» كرمز للحياة، والخصوبة، والبعث. وغالبا ما

(*) وفقا لما جاء فى معجم اللغة العربية هو معدن سليكى يشبه العقيق لكن الخطوط التى به طولية وليست مقوسة كالعقيق. واستخدمت التسمية الأعجمية لأنها الشائعة بين المهتمين بالأحجار الكريمة ـ المترجمة.

تهدى «مينات» إلى «حتحور» خلال الاحتفالات الدينية لإظهار الإخلاص فى العبادة للإلهة وما تمثله. وتحمل هذه الأطواق فى اليد اليسرى عند تقديمها للمعبودة. وقيل أيضا أن «مينات» كانت تجلب الصحة، والبهجة، والقوة لمرتديها؛ فغالبا ما تنقش على هذه الأطواق تعاويذ وأدعية. وفى الولائم، يقدم المضيف لضيف الشرف طوق «مينات» تعبيرا عن الترحيب.

وعثر على تيجان من أروع وأبدع المشغولات، ترجع إلى عصر الأسرة الثانية عشرة. فتاج الأميرة «خنو ميت»، الذى عثر عليه فى مقبرتها فى «دهشور»، يعتبر تحفة فى حد ذاته. وهو مصنوع من الذهب وأحجار شبه كريمة (مثل الفيروز، واللازورد، والعقيق الأحمر)، وصيغ الذهب على هيئة سلك رفيع مشكلا تجزيعات من الأحجار فى بتلات أزهار زرقاء. ويعود تاج رائع آخر، من نفس الفترة الزمنية، إلى الأميرة «سيت-حتحور-لونيت». ويتكون هذا التاج من شريط من الذهب به خمس عشرة وحدة زخرفية بهيئة الورد، مطعمة باللازورد والعقيق الأحمر. وشبكت ريشتان ذهبيتان رأسيتان إلى خلفية التاج مع ثلاث شرائط ذهبية منفصلة، تنسدل بسلاسة لتزين الشعر أو الشعر المستعار. وفى مقدمة التاج الأفعى الملكية المنتصبة «أوراكوس». ولم يكن يرتدى الكوبرا المقدسة «اوراكوس» سوى الأسرة الملكية، حيث أن ارتداءها فى وضعها المنتصب فوق الحاجب، يجعلها تحمى الفرعون، رمزيا، وتنفخ النار فى وجه من يقترب منه من الأعداء.

وكان ولع قدماء المصريين شديدا بالخواتم، ، بتصميمات مختلفة منها على هيئة الأصداف، أو الأنشوطة، أو الثعبان. فيرتدون خاتمين أو ثلاثة-فى كل إصبع-ولكن اغلب الخواتم ترتدى فى أصابع الكف اليسرى، خاصة فى الإصبع البنصر. وغالبا ما يزين الإبهام أيضا بالحلى. وعثر على خمسة عشر خاتما ترتديها مومياء «توت عنخ آمون».

واعتقد المصريون أن الذهب «نوب» هو لحم «رع» إله الشمس؛ ولأنه يرمز إلى الشمس، قدره المصريون تقديرا كبيرا. أما معدن الفضة، الذى سمى «حدج» أو «الذهب الأبيض» فقد كان أندر من الذهب، ومن ثم اعتبر أثمن منه. وارتبطت الفضة بالقمر واعتبرت عظام آلهة القمر. وسمى مزيج الذهب والفضة «تاچم»-بكسر الجيم-وهو عبارة عن معدن طبيعى يتكون من جزء من الفضة وثلاثة أجزاء من الذهب؛ عثر عليه فى مناجم النوبة. بينما جلب النحاس «حمت» من مناجم سيناء ولم يكن البرونز

على نفس القدر من الشيوع ولكنه استخدم غالبا لصنع خواتم الأختام؛ وقد عثر على العديد من هذه الخواتم تحتوى على ختم باسم الملك. وارتدى الخواتم حتى غير الأثرياء، غير أن خواتمهم كانت تصنع على الأرجح من العاج أو الخزف الأزرق.

وشاع استخدام الأقراط بشكل خاص، وعلى الأخص بين النساء، والأميرات الشابات. وكان الشكل الأكثر شيوعا بين النساء على هيئة طارة مستديرة كبيرة من الذهب. وأظهر فحص مومياوات مكتشفة تعود إلى حوالى عام ١٤٠٠ قبل الميلاد ثقوبا فى شحمات الآذان، وتحمل مومياوات تحتمس الرابع، وسيتى الأول، ورمسيس الثانى أثار ثقوب فى شحمات آذانهم. ويظهر تمثال رائع للملكة «نفرتارى»، الزوجة الرئيسة للفرعون «رعمسيس الثانى»، شحمتى أذنيها مثقوبتين بقرط على هيئة أفعى، كما تشير أعمال فنية أخرى تمثل الفراعنة إلى ثقب شحمتى الأذن.

وحظى صناع الحلى بتقدير كبير من المجتمع، ونالوا أجوراً جيدة على مهاراتهم. وفى العصور المبكرة، كان الأقزام يدربون ويوظفون كصائغين؛ حيث كانت أيديهم الصغيرة قادرة على التعامل مع فراغات الثقوب الضئيلة التى يتعين ملؤها بأحجار شبه كريمة. ومع ذلك، فبمرور الوقت حل الحرفيون الأجانب محلهم تدريجيا فى صناعة الحلى البديعة.

## قصص من البردى

ينتهى هذا الفصل بقصة مدهشة من بردية كتبت خلال عصر الأسرة الثامنة عشرة. وهى قصة حكيت فى الدولة القديمة، خلال عصر بناء الأهرامات، وتوضح عشق المصريين للحلى:

حيث وجد الملك «سنفرو»، والد خوفو بانى الهرم الأكبر، نفسه ضجرا للغاية وملولا، بعد ظهيرة أحد أيام الصيف الحارة الرتيبة. فقرر أن يستدعى ساحره الخاص ويطلب منه أن يعرض عليه أفكارا مسلية أو يقدم له أيا من أنواع الترفيه. واقترح الساحر على الفرعون المتململ أن يأخذ معه إلى قاربه الملكى عشرين من أجمل المغنيات ليجدفن بالقارب عبر النيل، غير مرتديات سوى شباك صيد السمك.

وسر الفرعون بهذا الاقتراح كثيرا، ومضى قدما فى تنفيذ الخطة. وكان الفرعون سعيدا بينما الفتيات الصغيرات الجميلات يغنين ويجدفن بالقارب. ولكن، بعد قليل من بداية الرحلة، فقدت إحدى الفتيات قطعة من الحلى النفيس كانت تربط بها شعرها الطويل المتهدل. فتوقفت فورا عن الغناء والتجديف، وفعلت صاحباتها الجميلات نفس الشيء. وأبلغت الفرعون، فى جرأة، أنها لن تواصل المشاركة فى الرحلة ما لم تستعد حليتها. فوقع الفرعون فى حيرة، واستدعى ساحره الخاص مرة أخرى، الذى ظهر فورا، وتمتم بتعويذة قوية، شقت مياه النيل. وهناك، عند قاع النهر كانت الحلية الذهبية راقدة. فأخذها الساحر، وأعادها إلى الفتاة، ثم مضى يعيد مياه النيل إلى سابق عهدها. وواصلت المغنية الشابة الغناء من كل قلبها، والتجديف بكل قوتها، وتبعها أيضا الفتيات الأخريات. ومرة أخرى عاود الملك «سنفرو» التسلية والمتعة. ونال الساحر مكافأة تلائم عبقريته، ومهاراته السحرية.

* * *

## ـ٦ـ

# الشعر المستعار ومستحضرات التجميل

### الشعر والعناية به

ازدهرت مهنة صناعة الشعر المستعار فى مصر القديمة . وانتشرت أشكال متنوعة من الشعر المستعار ، الذى يرتديه الرجال والنساء من جميع الطبقات الشعر داخل البيوت وخارجها . حيث كان دلالة على المكانة الاجتماعية ، كما شكل حماية من الحشرات ومن حرارة الشمس . ومثل الشعر المستعار جزءا مهما للغاية من زينة الشخص فى الاحتفالات ، وكان يزين بالخرز ، والشرائط ذات الشراريب ، وأكاليل الزهور . وبالطبع ، وجدت بعض الاستثناءات ؛ فالكهنة يحلقون رؤوسهم وأجسادهم كلية ، ولا يرتدون الشعر المستعار إطلاقا . فالشعر ؛ سواء كان بشريا أو صناعيا محرم بشدة فى طبقة الكهنة ، حيث اعتبر جاذبا للنجاسة . وتميز العامة بالشعر القصير ، بينما ربط الخدم الشعر من خلف الرقبة .

وخلال عصر الدولة القديمة ، صنع الشعر المستعار من شعر الحيوانات ، وفى وقت لاحق ، بحلول الدولة الحديثة ارتدى الأثرياء الشعر المستعار الأسود الكثيف المأخوذ من شعر البشر . كما صنعت بدائل أقل تكلفة ، من ألياف النباتات (مثل سعف النخل) ومصادر أخرى كصوف الغنم ، ذات حشوة من ألياف النخل تضفى كثافة عليه .

وقد عثر على بقايا ورشة لصناعة الشعر المستعار فى الدير البحرى ، واكتشفت عدة «باروكات» من الشعر المستعار . كما عثر أيضا على نموذج لرأس ، مع مواد أصلية للملحقات المستخدمة فى تخزين أو تركيب الشعر المستعار . وبقايا مادة منظفة ، ربما نوع من أنواع الشامبو .

وارتفع الطلب على مصففى الشعر وأخصائيى التجميل بين أسر النبلاء والأسرة الملكية. ومن بين أشهر من خلد ذكرهم، التوأم «خنموحتب» و «نينخ خنمو»، وهما الرجلان اللذان توليا المنصب المرموق «المشرفان على أخصائيى التجميل فى القصر» فضلا عن كونهما «كاتمى سر الملك» (وفقا لما نقش على مقبرتهما فى سقارة) وهما لم يتشاركا فى المنصب فحسب، وإنما دفنا معا أيضا. ومنذ اكتشاف المقبرة عام ١٩٦٤، كثرت التوقعات حول العلاقة بين الرجلين. وتظهر مشاهد نادرة داخل المقبرة للرجلين متعانقين. غير أن مناظر أخرى توضح أن لكل منهما زوجة وأسرة. وهناك مشاهد منفصلة لكل منهما مع أسرته، منهمكا فى صيد السمك بالرمح فى سعادة. وربما كان الرجلان صديقين حميمين وشريكين فى الحياة العائلية، بالإضافة إلى كونهما توأما؛ والأكثر أهمية هو الإعزاز المتبادل بينهما وتعلق كل منهما بالآخر.

وغالبا ما ترتدى النساء شعرا مستعارا غزيرا يغطى الأذنين يصل طوله إلى الذقن أو إلى الكتفين؛ ويفرق الشعر من المنتصف، وينتهى بقصة ناعمة. وشاعت قصة الشعر على الجبين إلى ما فوق الحاجب، كما شاع أيضا استخدام وصلات الشعر البشرى. وكان شعر الرجال قصيرا مع كشف الأذنين أو حليقا تماما. ويبدو أن اللون الأسود كان المفضل لشعر كل من الرجال والنساء. وتحوى لوحة من النقش البارز تصويرا جميلا لخادمة تصفف بعناية شعر الملكة «كاويت»، زوجة الفرعون «منتوحتب الثانى» (الذى حكم خلال الأسرة الحادية عشرة). وتصور اللوحة الملكة جالسة، ممسكة بمرآة فى إحدى يديها، وفى اليد الأخرى وعاء صغير تنبعث منه رائحة عطرية متصاعدة. وتميزت مقبرتها فى الدير البحرى بالمشاهد الدقيقة والرائعة لطقوسها فى التجمل.

واعتبرت اللحية منفرة، ومظهراً غير نظيف، علامة على الهمجية. ولم يكن يسمح للرجال بترك شعر ذقونهم ينمو قليلا إلا فى فترات الحداد. ومع ذلك، كانت اللحية المستعارة من الشعر المجدول تعلق من حول الأذنين، علامة فرعون عظيم، كما تشير إلى مكانته الجليلة، ورجولته، وقدسيته. ويظهر استثناء نادر لشعر الوجه فى نحت على حجر جيرى يرجع إلى أواخر عصر الأسرة الثالثة أو أوائل عصر الأسرة الرابعة لمسئول يدعى «رع حتب»، وهو ابن «سنفرو» وأحد كبار كهنة «لونو» (هليوبوليس). وتصوره اللوحة بشارب خفيف نوعا، وإلى جانبه زوجته الأميرة «نوفرت»، وتصويرها مهم أيضا؛ فاللوحة النحتية تصورها مرتدية شعرا مستعارا أسود

مع طوق للرأس من الزهور، ومع ذلك ظهرت من تحت الطوق خصلات من شعرها البنى الطبيعى.

وكانت تسريحات الشعر المستعار متأنقة وشملت الضفائر وشبك المجوهرات والخرز فى الشعر. واستخدم غسول محضر من شمع نحل العسل أو الراتنج للحفاظ على ثبات الضفائر. ولتقوية الشعر، استخدم علاج موضعى يتكون من مزج مسحوق سن حمار مع عسل. واعتبر الشعر الأشيب منفرا، وكان يعالج باستخدام جرعة تتكون من دم حيوان أسود (مثل قط أو ثور أو عجل) يغلى مع زيت، ويصاحب ذلك استخدام التعويذة المناسبة. ولمنع الشيب، ابتكروا دهانا من مغلى قرن أسود لغزال؛ كما استخدم غسول آخر يستلزم استخراج الدهن من ثعبان أسود. وكان يعتقد أن سواد لون الحيوان سينتقل إلى الجزء الذى سيعالج به من الجسد. ولعلاج سقوط الشعر، كان من الممكن استخدام دهن الأسد، أو فرس النهر، أو التمساح، أو القط، أو الثعبان أو طائر أبو منجل.

ويحلق الصبيان الصغار رؤوسهم، باستثناء خصلة تترك معلقة عادة على الجانب الأيمن من الرأس، وغالبا ما تضفر. وسميت هذه التسريحة «سيرى» أو «خصلة الجانب الشبابية»، وكان يعتقد أنها الأسلوب الذى اتبعه الإله «حورس» (وهو مثل أعلى لجميع الأطفال) الصغير فى تصفيف شعره. وأحيانا ما تتبع الفتيات أسلوب «خصلة الجانب الشبابية»، لكنهن غالبا ما يربطن الشعر على هيئة ذيل حصان أو ذيل خنزير.

## البخور والمر

فى مناسبات خاصة، مثل الحفلات، توضع معاجين على هيئة قمع مخروطى، ذى رائحة ذكية على قمة الشعر المستعار الذى ترتديه نساء الطبقة العليا. وبدأت هذه الطريقة تظهر فى اللوحات خلال عصر الدولة الحديثة. وتألفت هذه المعاجين من دهن، أو شحم، أو شمع، معطر أو محمل بالبخور؛ يذوب ببطء معطرا الجسم والثوب برائحة عطرية حلوة ودبقة. وكان لهذه الأقماع فوائد أخرى، حيث تعمل على إنعاش الجو وطرد الحشرات. وتظهر اللوحات أن الرجال ارتدوا أقماعا أيضا، وإن لم يكن بنفس كثرة ارتداء النساء لها.

ويرى باحثون، مؤخرا، أن هذه الأقماع فى اللوحات ربما لم تكن سوى مجرد رمز لارتداء الفرد شعر مستعار معطر أو مبخر. ومع ذلك، توضح مقبرة اثنين من النحاتين فى أواست (نيب آمون وإيبو كى من الأسرة الثامنة عشرة) معلومات كثيرة عن هذا الموضوع. ففى لوحة داخل المقبرة، تظهر خادمة صغيرة تحمل صينية صغيرة بإحدى يديها، وباليد الأخرى تقوم بتشكيل المعجون فى موضعه فوق رأس كل من ضيفتين جالستين معا. بينما جلست ثلاث سيدات فى المقدمة؛ وخادمة صغيرة أخرى تقدم لهن العطر، وهى تصب المادة العطرية فى وعاء صغير تمسك به إحدى الضيفات. ونظرا لأن هؤلاء النسوة الثلاث يجلسن أمام السيدتين الأخريين، فقد حظين بالفعل بأقماعهن المعطرة المشكلة والمستقرة فوق الشعر المستعار لكل منهم بدقة.

وفى اللغة المصرية القديمة، تعنى «نفر» الجميلة أو الطيبة، وهكذا نجد اسمى الملكتين «نفرتيتى» و «نفرتارى». أما «نفرتم» فهو إله اللوتس للعطر، وهو يصور بتاج من زهور اللوتس فوق رأسه. وكانت زهرة اللوتس مصدرا للبهجة بسبب رائحتها العطرية الطبيعية، وتقدم للضيوف فى الحفلات. وتصور إحدى اللوحات كاهنة من الأسرة الخامسة تستنشق فى سرور عبير زهرة اللوتس.

وتقدم مخلفات وبقايا وجدت خلال الاكتشافات الأثرية، دليلا مقنعا عن المقادير التى استخدمت لإنتاج العطور والزيوت. ولا جدال فى أن هؤلاء الناس كانوا يخصصون وقتا كبيرا من أجل مظهرهم وهندامهم. وكانت طقوس النظافة الشخصية أدق ما تكون بين أبناء الطبقة العليا. وبدلا من الصابون، استخدم مزيج من زيوت حيوانية ونباتية مع مسحوق الحجر الجيرى أو أملاح قلوية. وأنتجت زيوت التنظيف أيضا من مستخلص نبات الخروع البرى الذى يمزج بالرماد (لتحقيق تأثير التقشير) ويمكن أن يضاف هذا المزيج أيضا إلى رغوة فعالة. وعلى الأرجح، استخدم ملح النطرون مع الماء لغسيل الفم. وتوافر النعناع فى مصر منذ ما قبل عصر الأسرات، وتمضغ أوراقه لإنعاش رائحة الفم. وكان يعتقد أن رائحة فم«إيزيس»، المعبودة الكبرى، وزوجة «أوزيريس»، معطرة، وعبيره أطيب من رائحة الزهور.

ولم يكن العطر ترفا غاليا فحسب، وإنما سلعة تصدير قيمة أيضا. وصارت مصر مشهورة فى أنحاء العالم القديم بعطورها. واستخدم الرجال والنساء العطور لتطييب رائحة الجسم، الأمر الذى كانت له أهميته. وأعدت العطور من زيوت مستخرجة من نباتات، وأعضاء حيوانات، وشحوم هذه الحيوانات مثل الثور، والإوز، والقط، وفرس النهر، والتمساح؛ معطرة بمقادير عطرية مختلفة.

وتألفت العطور الشائعة من زيت الزعفران الأصفر، وأوراق نبات الحناء، ونبات القرفة، واللوز المر، والسوسن، وزهور الزنبق. وكان العطر يستخلص ثم ينقع فى زيت شجرة اليسار لإنتاج العطور السائلة. ولصنع الدهان المعطر، يخلط العطر بالشمع أو شحم حيوان. وقد عثر على بقايا دهانات مصنوعة من الزيت والليمون. واستخدمت الفانيليا كمعطر، وكمثير للشهوة الجنسية أيضا. وتضمنت وصفات أخرى اللوز، وزيت الخروع، وخشب الصندل، والزهور، والخمور ذات الرائحة الزكية، والبخور، والمر، والسنا(*) (وهى تشبه القرفة).

وحفظت هذه التوابل العطرية فى قوارير أنيقة منحوتة من المرمر ذات تصميمات مبتكرة وجذابة: فإحداها على هيئة قزم يحمل قنينة فوق كتفه، وأخرى على شكل فتاة تسبح، أو سمكة. وعثر على قنينات مصنوعة من الخزف، ومن الأونكس، والزجاج الملون، والعاج، والعظم، ومزينة بأصداف أو أحجار شبه كريمة. وعثر على قنينة

(*) يطلق عليها القرفة الصينية ـ المترجمة.

رائعة تنسب إلى «مير رينا» (الذى حكم البلاد خلال عصر الأسرة السادسة) على هيئة أنثى حمار جالسة. والملفت للنظر فى هذه القنينة من المرمر الشفاف، أنه يمكن للمرء أن يرى داخل جسم التمثال أنثى الحمار تضم جنينا بحنان إلى جسدهما كما لو كان مازال فى رحمها.

وفى مصر القديمة، اعتبر الزيت رمزا للبهجة و ضرورة من ضروريات الحياة اليومية. وكان للزيوت أهمية كبرى بسبب حرارة الشمس المسببة للجفاف، والرياح الجافة، والهواء الساخن فى وادى النيل. وعندما يضاف العطر إلى الزيوت، يصبح سلعة ترفية. بلغ من أهمية زيت تعطير الجسم للمصريين القدماء أنه صار من أكثر المواد المعتاد صرفها للعمال كرواتب مقابل أعمالهم. كما قدمت الزيوت كقرابين للآلهة وكانت التماثيل تدهن بالزيوت العطرية. وفى الطقوس الجنائزية، استخدمت تشكيلة طقسية عرفت باسم «الزيوت السبعة المقدسة» فى تضميخ المومياء خلال عملية التحنيط. وفى اللوحة الخلفية لعرش «توت عنخ آمون، الذهبى، رسما يصور زوجته «عنخ سن آمون»، وهى تضمخ فى حنو زوجها، وهو جالس، من كأس تحمله.

وتمتعت الزيوت الأكثر عطرية، مثل زيوت المر، واللبان، والزنبق، بتقدير عال وغالبا ما كانت تخلط بعطور من الزهور، والفواكه والأعشاب. واستخدم العسل لرائحته ولأنه يمنع ظهور التجاعيد؛ كما كانت معاجين الطمى المصنوعة من مسحوق حجر الشب، وروث التمساح المجفف، وزيت نبات الحلبة العطرى؛ مهمة أيضا فى المساعدة على الحفاظ على شباب البشرة. وعثر على كتابات تؤكد أن كليوباترا السابعة كانت تستحم بلبن الحمير، اعتقادا فى أنه يمنع التجاعيد ويحافظ على طراوة البشرة.

## الظهور بوجه جميل

استخدم الرجال والنساء والأطفال، من جميع الطبقات، مستحضرات التجميل قبل ألفى عام من بناء الأهرامات. كما اعتقد المصريون أن هذه المستحضرات ستستخدم فى الحياة الأخرى. وعثر على العديد مواد التجميل فى المقابر وصورت فى اللوحات الجنائزية. كما عثر على لوحات تلوين، منحوتة من الإردواز، لمزج مساحيق التجميل، تعود إلى حوالى عام ٣٣٠٠ قبل الميلاد.

واستخدمت مساحيق التجمل للزينة بالطبع، بيد أنها استخدمت أيضا لأغراض دينية، وللحماية من أشعة الشمس. وكان يعتقد أن مستحضرات التجميل تنطوى على خصائص سحرية وعلاجية، وتم إعداد وصفات خاصة منها لعلاج ضعف النظر، وأمراض العين المعدية.

واعتبرت العين المنطقة الأساس التى يركز عليها التجميل أو «ميسدميت»، ووهى تجمل بحيث تشابه أو تستدعى إلى الذهن صورة عينى «رع» أو «حورس». واستخدم لتجميل العين مساحيق باللونين الأسود أو الأخضر، وهما لونا البعث والبهجة، على التوالى. وشمل الأسلوب السائد فى رسم العيون، رسم خط ثقيل من اللون الرمادى الغامق أو الأسود عل الجفن العلوى، ثم خط رفيع من اللون الأخضر على الجفن السفلى. وترسم العين على نحو يمنحها شكل لوزة جذاب، يمتد نحو خط الشعر.

واستخرج اللون الأخضر لرسم العيون من المالاكيت، خام النحاس الأخضر الذى عثر عليه فى سيناء والصحراء الشرقية؛ أما الكحل أو اللون الأسود لرسم العيون، فيحضر من كبريتيد الرصاص، وهو خام الرصاص الرمادى القاتم. واستعمل أيضا فى تجميل العيون أبيض الرصاص (الاسبيداج)، والسنبار(*)، والأنتيمون(**)، ومسحوق الرصاص، والسناج، واللبان، واللوز والفحم. وتسحق هذه المكونات ثم تخلط بالشحم والزيت والماء والصمغ لتشكيل عجينة. وكانت هذه المكونات تمزج وتخزن فى قدور، وزجاجات وقوارير صغيرة، مصنوعة من المرمر أو الخزف. وعثر فى مقبرة تعود إلى الدولة الحديثة على نوع من الحاويات الأنبوبية الصغيرة المصنوعة من أعواد النبات لتخزين الكحل، ونوع آخر على هيئة حاوية أنبوبية يحملها قرد. ووضع لاصق على المنتجات يحمل وصف «أصلى» و «فاخر». وأثناء عمل «الماكياج» كانوا يستخدمون طبقا، أو لوحة لمزج الألوان على شكل حيوان (مثل كبش) أو سمكة. ويوضع المزيج

(*) معدن يتبلور فى فصيلة الثلاثى، ونظام الأوجه فيه شبه منحرف، البلورات معينية الأوجه عادة وغالبًا ما تكون على هيئة كتلية حبيبية أو ترابية أو قشور أو حبيبات منتشرة فى الصخور. لون المعدن أحمر قرمزى عندما يكون نقيًا لكنه معتم حال كونه غير نقى، مخدش المعدن أحمر وبريقه ألماسى وصلادته (٢,٥) ووزنه النوعى (٨,١)، تركيبه الكيميائى كبريتيد الزئبق (بق كب) (Hg S) والزنجفر هو المصدر الوحيد الهام لفلز الزئبق ـ المترجمة نقلا عن معجم المصطلحات العلمية الصادر عن مجمع اللغة العربية.

(**) عنصر فلزى فضي اللون بزرقة خفيفة ومنه الإثمد وهو الكحل الفاخر الذى حرصت بلاد البحر المتوسط القديمة على استيراده من مواطنه فى شبه الجزيرة العربية وبعض المناطق القريبة منها ـ المترجمة نقلا عن المعجم السابق.

باستخدام عصا خشبية صغيرة، أو فرشاة، أو بأطراف الأصابع. وشاع أيضا استخدام الملاعق المصنوعة من الحجر، أو العاج، أو العظم، أو المعدن. وبالمثل، نحتت ملاعق التجميل على أشكال وأنواع مذهلة. وتضمنت الملاعق المكتشفة من عصر الدولة الحديثة، واحدة مصنوعة من المرمر، على هيئة فتاة صغيرة تسبح وهى مادة ذراعيها أمامها، ممسكة بحاوية منحوتة على شكل حيوان. وصنعت ملعقة أخرى، تعود لنفس الفترة الزمنية، من الخشب، ونحتت على هيئة راقصة تعزف على دف مربع الشكل بين زهرتى لوتس طويلتين.

ولإضافة التورد إلى الوجنتين وتلوين الشفتين، يسحق أكسيد الحديد الأحمر، أو مسحوق حجر الدم، ويمزج بالماء. ويحضر اللون الأحمر أيضا من خضاب أوراق نبات الحناء (أو حنو) الذى ينمو فى الحقول. واستخدمت نساء مصر القديمة، المهتمات بمتابعة أحدث صيحات الأناقة، الحناء أيضا لصبغ أظافر أكفهن وأقدامهن، ولصبغ الشعر، بل وأيضا راحة الكف، وباطن القدم. ويعزز الجمال الأنثوى بالوشم. وتوجد أقدم الدلائل على ذلك فى لوحات وتماثيل تعود إلى عصر ما قبل الأسرات. وغالبا ما يتكون الوشم من نقاط صغيرة، أو صورة معبود، مثل «بس». وبالطبع، فمن المحتمل أن هذا الوشم - بعكس الأقماع المعطرة - كان مجرد مزاعم فنية.

## أدوات المهنة

استخدمت مرايا مصقولة بعناية (تسمى عنخ)، مصنوعة من البرونز، أو النخاس، أو الفضة، عند وضع مستحضرات التجميل. وعثر على مرايا أيضا موضوعة تحت رؤوس المومياوات، أو فى مقابل وجوهها، كما حدث مع مومياء مسئول من الأسرة الحادية عشرة، مدفون فى «أواست». وأنتج صناع المعادن مقابض أنيقة بأشكال بديعة مثل فتيات صغيرات، أو زهور، أو حيوانات، أو رمز للحياة الأخرى - المعروف أيضا باسم عنخ - والعديد من التصميمات الدقيقة الأخرى. وكثيرا ما زينت صورة «حتحور»، إلهة الحب، والبهجة، والجمال جانبى المرايا أيضا، بينما غالبا ما اتخذت مقابضها شكل ساق نبات البردى.

وصنعت أمشاط ودبابيس شعر ذات أسنان واسعة من البرونز، أو الفضة، أو العظم، أو العاج. كما عثر على أمشاط للشعر ترجع إلى عصر ما قبل الأسرات،

ولبعضها مقابض مزخرفة على هيئة غزال. واستخدمت السيدات الأنيقات ملاقيط من البرونز لتسوية حواجبهن على شكل قوس ضيق. كما استخدمن حجر الخفاف وأمواس من البرونز أو الذهب لإزالة الشعر غير المرغوب فيه. ووجدت مثل هذه الأمواس فى مقبرة الملكة «حتيفيرس» والأميرة «سيت هاتور لونيت». وخلال الألفية الثالثة قبل الميلاد، صنعت الأمواس من أحجار مسنونة مثبتة فى مقابض خشبية.

ووضعت قوارير التجميل فى صناديق مصنوعة من مواد نادرة مثل خشب الأبنوس والعاج، مطعمة بأحجار شبه كريمة، ومطلية بأزهى الألوان. وقد نقشت خزانة التجميل الخاصة بالأميرة «سيت هاتور لونيت»، على هيئة مقصورة وصيغت من الذهب والفضة، والعاج، والأبنوس، والعقيق الأحمر والخزف. واحتوت هذه الصناديق أيضا على أمشاط، ومرايا، وأدوات رسم الماكياج ولوحات تلوين حجرين. وغالبا ما تصحب السيدات معهن فى الحفلات، صناديق أو خزانات التجميل، تحسبا، لغرض تعديل الماكياج الذى لا مفر منه. ويضعنها بالقرب منهن، تحت مقاعدهن، تماما كما يفعلن اليوم مع حقائب اليد.

***

## ـ ٧ ـ

# الاستجمام

### كل، واشرب، وابتهج

كان المصريون اجتماعيون للغاية، وعرفوا كيف يتمتعون بأوقات فراغهم، كفاصل راحة مبهج، من الكد اليومى. وكثيرا ما أقام الأثرياء الحفلات والمآدب الباهظة؛ حيث يصل الضيوف قرب منتصف النهار، ويرحب بهم بتطييب رؤوسهم بمزيج العطور الزكية. وكانت العادة أن يقدم المضيف لضيوفه الزهور من باقة مبهجة. وتتولى إحدى خادمات البيت خلع صندل الضيف وتقدم له/ لها زهرة لوتس للشم، أو ربما لوضعها فى طوق الرأس. كما تقدم الأكاليل والقلائد من الزهور، بالإضافة إلى براعم اللوتس، التى يمكن أن تشبك فى خصلات الشعر المستعار.

ويدور الخدم من الصبية والفتيات على الضيوف لتقديم الطيوب المعطرة، وأكاليل الزهور، والعطور النادرة، وطاسات الخمر. وفى مقبرة أحد الطباخين الملكيين، ويدعى «نفر أونبت» (عاش خلال عصر الأسرة الثامنة عشرة) عثر على لوحة جميلة تصور أربع سيدات جالسات فى مأدبة. وفى هذه اللوحة تشم إحدى السيدات زهرة اللوتس، بينما ترفعها لها صديقتها لتستمتع بها.

وتقدم الخمر للنساء من وعاء صغير يسكب فى كئوس شرب بديعة، بينما يشرب الرجال من أقداح أو أوعية أكبر حجما.

وشكلت الموسيقى والرقص جانبا أساسيا فى ولائم المصريون القدماء. فبينما يعد الغذاء بعناية، تتولى فرقة من الموسيقيين المستأجرين تسلية الزوار، بينما تقوم لاعبات أكروبات وراقصات بالترفيه عن الضيوف. وتضم الفرق الموسيقية رجالا ونساء؛ أو

راقصة واحدة قد يصاحبها ثلاث أو أربع مغنيات. وتوجد لوحات تصور نسوة فى أوضاع راقصة ترجع إلى عصر ما قبل الأسرات. وفى مقبرة «نيب آمون» التى ترجع إلى عصر الأسرة الثامنة عشرة فى أواست، لوحة تصور راقصتين شابتين تؤديان الرقص فى إحدى الحفلات. وتقف المغنيات «الكورال» أو يجلسن خلف الراقصة مباشرة. ويتحدد الإيقاع بالتصفيق اليدوى، على نحو يشبه إلى حد بعيد ما يحدث فى موسيقى الفلامنكو الإسبانى، حيث يعتبر فنا فى حد ذاته. وفى العادة، تكون الراقصات إما خادمات مدربات، أو جوار، أو سيدات من الحريم، أو راقصات محترفات يستأجرن للمناسبات الخاصة. وخلال عصر الأسرة الرابعة، تلقت بعض الراقصات قلائد ذهبية مكافأة على أدائهن.

وبعد الغذاء، جرت العادة على أن ترفع صورة خشبية للإله «أوزيريس»، إله البعث، يتراوح ارتفاعها بين قدم ونصف القدم وبين ثلاثة أقدام، ويقصد بهذه الصورة التذكير بأن الحياة نفيسة وعزيزة جدا، رغم أنهم يقضون كل حياتهم على الأرض وهم يستعدون للموت. كما تساعد فى دعوة المصريين القدماء إلى التواضع، اعترافا بأن العمر محدود، وأن أعمالهم فى هذا العالم تؤثر على حالتهم فى العالم التالى وتحددها.

واعتبرت جميع الطبقات الاجتماعية الموسيقى والرقص جانبا مكملا لجميع المهرجانات، والتشريفات، والاحتفالات. وكان الإنشاد يؤدى أثناء إقامة الشعائر فى المعابد والاحتفالات الجنائزية. وشاعت أغنيات الحب، وتناقلتها الأجيال. وغنى المصريون أثناء العمل فى الحقول مثلما يغنون أثناء الولائم، والاحتفالات، والمهرجانات. وكان «إيحى» ابن «حتحور»، إله الموسيقى والرقص عند قدماء المصريين. وهو يصور عادة على هيئة طفل يعزف على الصلاصل، أو الجلاجل المقدسة. وكانت «حتحور» و«بايت» إلهتى الموسيقى والرقص والمرح. غير أنه للأسف، لم يعثر على أى نوتات موسيقية أو تسجيلات مدونة لمقطوعات موسيقية.

## آلات العزف

تعتبر المصلصلات، وهى آلة نقر بسيطة، من أقدم الآلات الموسيقية المسجلة فى مصر. ويعتقد أن شكلها مستوحى من المغزل. وصنعت من الخشب، أو العظم، أو

العاج، ولم تكن تستخدم فى الحفلات فقط، وإنما يعزف عليها رجال أيضا بينما يقوم العمال بعصر العنب، أو يعملون فى الحقول. واستخدمت كوسيلة لرفع معنويات الفلاحين الكادحين حيث يعملون على وقع النغمات المتفائلة للأغانى. وكانت المصلصلات أيضا تدفن مع بقية مستلزمات الدفن لطرد الأرواح الشريرة. وقد عثر فى مقبرة «توت عنخ آمون»، على زوج من المصلصلات المنحوتة بإتقان من العاج وسن فرس النهر، على هيئة كفين ومنقوش عليها صورة الإلهة «حتحور». كما تعزف المصلصلات، على شرف «حتحور» أثناء ولادة الأطفال، لتسهيل عملية الولادة.

كما تطورت الكاستانيت الإسپانية أو «كاستانيوكلاس» المصنوعة من الكستناء (كستانيا بالإسپانية) والخشب، عن الصناجات المصرية (التى كانت تصنع فعليا من الفضة، أو النحاس الأصفر). وفى إحدى مقابر أواست، عثر على صناجات أصابع معدنية يبلغ قطرها نحو أربع بوصات، تعود إلى حوالى عام ٢٠٠ قبل الميلاد.

وشاع استخدام آلتى «الجنك» و«الكنارة»(*) اللتين كانتا تزخرفان بالألوان الزاهية، وربما تنحتان على هيئة أشكال مختلفة، ويرسم عليهما رموز مثل الزهور. وكانت آلات «الكنارة» الرأسية الضخمة(التى يصل طولها إلى خمسة أقدام) يعزف عليها الموسيقيون وهم وقوف، بينما كان العازفون يداعبون أوتار الآلات الأصغر حجما بينما يجلسون فى وضع الركوع أو القرفصاء. أما آلة «الجنك»، المفضلة فى ذلك العصر، فكانت بسيطة أو معقدة من حيث التصميم والصنعة، وتحتوى على ما يتراوح بين أربعة أوتار، وأربعة وعشرين وترا، وغالبا ما تحمل على قاعدة مسطحة. ويعزف على هذه الآلة إما وقوفا أو جلوسا طبقا لحجم الآلة. وكانوا يعتقدون أن صوت الجنك الهادئ، والمهدئ يسر الآلهة، لذلك كانت تعزف غالبا عزفا منفردا، كما كان معتادا أن تصاحب مغنيا، أو تعزف ضمن فرقة موسيقية متطورة. وشاع استخدام آلات

(*) يشير الدكتور صبحى أنور رشيد فى كتابه «تاريخ الآلات الموسيقية» الصادر عن: المؤسسة التجارية للطباعة والنشر ـ بيروت ـ الطبعة الأولى (تاريخ الطبعة غير مذكور) إلى كثرة استعمال كلمة قيثارة فى اللغة العربية للدلالة تارة على الكنارة (lyre) وتارة أخرى على آلة الجنك (harp) مؤكدا على عدم صحة هذا لأن القيثارة الأصلية تختلف عن الآلتين المذكورتين. ويقول الدكتور فتحى عبد الهادى الصنفاوى فى كتابه «الموسيقى البدائية وموسيقى الحضارات القديمة» الصادر عن الهيئة العامة للكتاب عام ١٩٨٥م. إن الجنك كان الآلة الوترية الوحيدة فى الدولة القديمة، بينما ظهرت الكنارة فى الدولة الوسطى وهى تشبه آلة الطنبورة النوبية تماما ـ (المترجمة).

«الجنك» ذات القاعدة الضخمة خلال عصر الدولة القديمة. كما عثر على تماثيل خشبية مطلية لفتيات يعزفن «الجنك»، ترجع إلى عصر الأسرة التاسعة عشرة.

وعثر على آلات «الطبلة» التى يعزف عليها بالأيدى، تعود إلى عصر الأسرة الوسطى. وغالبا ما كان العازفون على المزمار والناى من الرجال، بينما تعزف النساء غالبا المزمار المزدوج والدف، ذى الشكل الدائرى، أو المستطيل، أو المربع. ويصاحب الدف، ، مثلما الجنك والكنارة، الموسيقى التى تعزف فى المهرجانات، والمواكب العسكرية، بالإضافة إلى الطقوس الدينية. كما كانوا يستمتعون أيضا بالعود، الذى يشبه المندولين. ويعتقد أنه ـ مثل الكنارة والأوبوا ـ جاء إلى مصر بواسطة الهكسوس خلال عصر الدولة الحديثة.

وفى مقبرة واحد من الكتبة، ومشرفى المعابد، اسمه «ناخت» توجد لوحة تصور عازفا أعمى جالسا وهو يعزف الجنك. كما يظهر فى لوحة جدارية بمقبرة «حور محب» فى أواست، مغن أعمى، يصفق بيديه. وتزين صورة ثلاث عازفات، مرتديات أثواب بيضاء ضيقة من الكتان، مقبرة الوزير «ريخمتر». وفى هذه اللوحة تداعب امرأة راكعة أوتار «جنك»، بينما تعزف أخرى العود، وتضرب امرأة ثالثة دفا مستطيل الشكل.

وتحكى أسطورة رائعة كيف ظهرت "الكنارة" للمرة الأولى. فبعد أن فاض النيل فى إحدى السنوات وغمر الأرض، ثم عاد إلى حدود ضفتيه، خلف وراءه طبقة من المخلوقات البحرية. ومن بين هذه المخلوقات سلحفاة، جف لحمها بسبب حرارة الشمس اللاهبة. ولم يتبق داخل الصدفة سوى أوتار وأعصاب متليفة، ولأن حرارة الشمس جعلتها مشدودة فقد صارت رنانة. وفى أحد الأيام، كان «تحوتى» (تحوت) إله الاتصال والتعلم، يتمشى على شاطئ النيل، فمر على هذه الصدفة، وركلها عرضا. فإذا بالصوت الذى انبعث من الصدفة يثير فى نفسه سرورا هائلا. فأخذ هذه الفكرة كنموذج، وتوسع فيها، لينشئ آلة موسيقية على هيئة السلحفاة، ويزودها بأوتار من أربطة حيوانات ميتة.

أما البوق (الذى سمى شينيب)، فكان يعزف فى معظم الأحوال خلال المواكب والأحداث الدينية والعسكرية. وقد عثر على بوق مصنوع من النحاس أو البرونز ومطلى بالذهب، مع سدادته الخشبية بين كنوز توت عنخ آمون، بالإضافة إلى بوق

آخر مصنوع من الفضة. والأمر المثير، أن البوق لم يعزف عليه أبدا فى مدينتى «زاوتى» و «رچدو» (بوزيريس). ولم لا؟.. فالصوت كان مماثلا لنهيق الحمار؛ الحيوان الذى ارتبط بالإله ست المخيف، غير المحبوب، الذى صور على هيئة إنسان برأس حمار.

واعتبر الرقص نشاطا مفضلا لتمضية الوقت داخل البيت وخارجه، غير أن الرجال والنساء يرقصون منفصلين، ومن النادر أن يرقصوا معا أزواجا. وربما يرقص الفلاحون فى الشوارع، لكنه كان من غير اللائق بالنسبة لأبناء الأصول أن يرقصوا فى الأماكن العامة. ويعتقد أن الرقص المصرى نشأ مع النساء فى أجنحة الحريم، كوسيلة لتسلية أنفسهن، وكثيرا ما أمتعت الراقصات المحترفات الجماهير التى تحتشد لمشاهدتهن فى الشوارع. وكان الرقص فى حد ذاته عبارة عن حركات بهلوانية ومعقدة للغاية، يتم من خلاله القيام بحركات العجلة الدوارة، والشقلبة، والقفز، والوقوف على اليدين، والانحناء إلى الخلف، والدوران، والانزلاق على الأرض، والرقص على أصابع القدم. وكانت أدوات الراقصة عبارة عن الدف وصناجات الأصابع. وتؤدى الراقصة حركاتها حافية القدمين، مرتدية الحلى وحزام حول الأرداف. ولم يكن ثوب الراقصة يترك شيئا يذكر للتخيل، فعادة ما يكون شفافا، أو ذا ألوان خفيفة، مصنوعا من أجود أنواع النسيج، يلتف بليونة وانسيابية. وغالبا ما يرتدى معه حزام يلتف حول الأرداف.

ونقشت مشاهد رائعة لراقصين من رجال ونساء فى مقابر «أواست» من بينها مقبرة وزير يدعى «أنتيفو كر» عاش خلال عصر الأسرة الثانية عشرة، فى عهد «سنوسرت الأول». وعثر على لوحة أخرى عبارة عن نحت بارز على حجر جيرى مطلى على جدران مقبرة «نيخفت ـ كا» فى سقارة، ترجع إلى عصر الأسرة الخامسة. وتصور هذه اللوحة مغنيات، وعازفات «الجنك»، وراقصات، ونساء يصفقن ويغنين. ومثل الرقص عنصرا بالغ الأهمية فى المهرجانات الزراعية والدين، واعتبر جزءا أساسيا من الثقافة المصرية القديمة.

وبوجه عام، كان الأطفال يفضلون اللعب خارج البيت، فلعبوا بالنحلة الدوارة المصنوعة من الطين، أو الحجر أو الخشب، كما لعبوا بكرة الجلد المدبوغ المحشوة. وعثر على مجموعة دمى عبارة عن ثلاثة أقزام راقصة مصنوعة من العاج، ترجع إلى عصر الأسرة الثانية عشرة، ويمكن تحريك هذه التماثيل باستخدام مجموعة من الخيوط

والبكرات. وشاع نحت دمى على هيئة حيوانات من الخشب أو العاج؛ كما عثر على تماثيل لتماسيح، وقطط، بل وحتى خيول، على عجلات. البعض منها؛ ومن بينها أسد، لها فك يمكن تحريكه بواسطة خيط. وعثر على العديد من القطع التى يمكن جذبها بواسطة خيط أيضا، منها ضفدع، مصنوع من الحجر، له فك متحرك، وقطع أخرى تمثل أشخاصا يميلون إلى الأمام لغسيل الملابس أو لإعداد العجين.

واستمتعت الفتيات بالرقص، ولعبن بدمى مصنوعة من الطين والخشب، ذات أذرع وأرجل متحركة. ومارس الأولاد الألعاب التنافسية، مثل المصارعة، والرماية، والتحطيب بالعصى، وشد الحبل. كما مارس فتيان الطبقة العليا الرماية بالسهام، والفروسية. وفى مقابر بنى حسن الصخرية لوحات تصور الأطفال وهم يلعبون كرة الظهر والكتف معا، كما شاعت لعبة القفز فوق ظهور بعضهم البعض(*).

وكانت مسابقات الرماية تعقد بين الرجال، وكذلك مسابقات المصارعة التى كانت شعبية. وظهرت لوحات تصور الرجال، وهم يتصارعون مع بعضهم البعض(سواء لاستعراض الرياضة أو التدريب على القتال)على جدران حجرة الدفن فى مقبرة الحكيم «پتاح حتب» (الأسرة الخامسة). وفيها يظهر الرجال وهم يتصارعون المصارعة الزوجية. بينما كانت مصارعة الثيران ـ حيث يصارع الثور ثورا آخر ـ أكثر إمتاعا. وتمنح الجائزة لصاحب الثور الفائز. وشاعت أيضا رياضة صيد الطيور؛ حيث يضرب الطير بمغزل، أو يغوى بطعام، ويوقع به فى شرك للطيور.

ومارست الأسرة كلها رياضة صيد الطيور، وصورت مثل هذه النزهات كثيرا فى اللوحات البارزة بمعابد «أواست». وتظهر إحدى هذه اللوحات "نخت" حاملا طعما على هيئة طائر لجذب الضحايا الحقيقيين أثناء نزهة عائلية. وشاركت جميع الطبقات فى هذه الرياضة. واستخدم المحترفون فى هذه الرياضة الشبك، والفخاخ، بينما استخدم الهواة عصى الغزل.

ووفر النيل العديد من مصادر اللهو والتسلية. فشاعت رياضات العوم، والتجديف، وصيد التماسيح والأسماك. واستخدمت الرماح أو شباك الصيد لصيد السمك من أطواف صغيرة تصنع من البردى، واستخدمت السلال أيضا لحمل

(*) يمارسها أطفال الأرياف والأحياء الشعبية حتى الآن باسم «نطة الانجليز» ـ المترجمة.

السمك. واعتبر «فرخ النيل» أكبر وأقوى أنواع السمك، الأمر الذى جعله الهدف الرئيس للصيادين. وعرفت رياضة صيد فرس البحر التى استلزمت شجاعة كبرى، وحرابا طويلة.

واعتبر القنص فى الصحراء، وسيلة النبلاء المفضلة لقضاء وقت الفراغ، حيث يصطحبون معهم كلابا مدربة. لقنص الثعلب، وابن آوى، والذئب، والثور، والغزال، والأرنب البرى، والقنفذ، والبابون، والماعز، والنمر، والضبع. وحظى النعام بتقدير كبير نظرا لريشه الزخرفى، الذى اعتبر رمزا للحقيقة المقدسة. ونقش مشهد للصيد على جدران مقبرة «أوزير حت»، حيث أرنب برى يفر بحياته من الصياد. وغالبا ما تستخدم الكلاب، خاصة من النوع السلوقى، لسرعتها وولائها وشجاعتها أثناء مصاحبتها لسيدها. وفى أول الأمر، مارس الرجال القنص سيرا على الأقدام، ولكن بالطبع مع حلول عصر الدولة الحديثة، استخدمت الخيول والمركبات ذات العجلات.

وعشق أبناء الأسرة الملكية صيد الأسود. وخلال إحدى نزهات «أمنحتب الثالث» قتل ما لا يقل عن مائة أسد. وصحبت الأسود الأليفة أيضا الأسرة الملكية خلال بعثات الصيد، لما تتميز به من سرعة الحركة، والشجاعة، والشراسة. وكثيرا ما اصطحب «رعمسيس الثانى» أسدا أليفا معه.

وشاعت ألعاب تمارس داخل البيوت، مثل النرد، والسيجا (وهى لعبة تشبه الشطرنج). وصنعت رقاع لعب رائعة من الخشب، أو العاج، أو الأبنوس، أو غيرها من المواد النادرة، ومثلت عظام مفاصل الحيوانات مادة جيدة لصناعة النرد. وترجع لعبة «محن» - بكسر الميم والحاء - إلى عصر الدولة الحديثة. ولعبها أبناء الأسر الملكية، وربما آخرون أيضا، على رقعة دائرية. كما تعتبر لعبة تسمى «سنت» - بكسر السين والنون - أكثر ألعاب الرقاع شعبية عند جميع الطبقات، أحياء وأموات؛ حيث كانت هذه اللعبة تدفن مع الراحلين لتسليتهم فى الحياة الأخرى. ولعل أقدم دليل على هذه اللعبة، لوحة مرسومة على مقبرة ترجع إلى الأسرة الثالثة. كما عثر على أربعة ألعاب من هذا النوع بين كنوز «توت عنخ آمون»، وعثر على رقعة للعب «سنت»، مصنوعة من الخزف الأزرق المصقول تخص «أمنحتب الثالث». وفى حجرة الدفن الخاصة

بالملكة «نفرتارى» ؛ لوحة تمثلها وهى جالسة بأناقة، تحمل فى يدها صولجان الإلهة «سخمت»، بينما تستمتع بلعبة «سنت».

وتعلق المصريون من جميع الأعمار بسرد القصص، وكانوا خلاقين ومبدعين فى هذه الصنعة مثلما كانوا فى النحت. وامتلكوا دائما مددا كافيا من القصص للارتجال أو الاستظهار من الذاكرة. ومن السهل أن يتخيل المرء الرواة وهم يغزلون قصصا ساحرة فى شوارع القرى أمام جمهور مأخوذ.

* * *

## ـ ٨ ـ

# العمل والحرف

### الزراعة

كانت الزراعة العمل الرئيس لعامة المصريين، وتليها الصناعات الزراعية مباشرة. حيث يحول الشعير إلى خبز وجعة، بينما يعالج نبت الكتان، الذى ينمو فى الشتاء، ليصبح نسيجا (يسمى منخ). وكان الطلب على نسيج الكتان مرتفعا، ليس من أجل الملابس فحسب، وإنما من أجل أغطية الأثاث، وأكفان الموتى، التى تتطلب طبقات كثيرة من القماش. وكان إنتاج ملابس وأنسجة الكتان من أكثر المهن ربحية؛ ومن هذه المهن أيضا زراعة البردى، أو«چت» الذى يكثر بأراضى المستنقعات فى الوجه البحرى.

وساعد «الشادوف»، آلة رفع المياه للرى، فى تيسير أعمال الزراعة إلى حد كبير، وزاد إنتاج المحاصيل سنويا. وفى مقبرة «إيبى» لوحة تصور قزما يدير شادوفا. ويعتقد أن هذه الآلة المهمة، جاءت مع الهكسوس، أثناء غزوهم مصر فى عصر الاضمحلال الثانى. ومازال «الشادوف» يستخدم حتى الآن فى المناطق الريفية من مصر.

### حكم مطلق بكل المقاييس

كان الفرعون مالكا لكل شىء فى مصر. وأبدعت الإدارة نظاما بيروقراطيا، لتطبيق الإشراف الكامل، وضمان وصول فوائض المحصول إلى الطبقة الحاكمة. وصار الاقتصاد تدريجيا معتمدا إلى حد كبير على الضرائب التى يدفعها النبلاء؛ ووصلت هذه الضرائب إلى ارتفاع حاد خلال العصر البطلمى.

وكما ذكرنا سابقا، كانت الضرائب تفرض وفقا لفيضان النيل، حيث يحدد الفيضان مساحة الأرض التى ستخصب. ويزور موظفو القصر المزارع، ويحددون

حصة الحبوب، أو كمية الحبوب التى يتعين دفعها كضرائب. وعادة ما تودع هذه الكمية المقدرة فى صوامع المعابد، أو صوامع الدولة التى يديرها مسئولون حكوميون. وكانت المعابد تملك مباشرة نسبة كبيرة من الأراضى الزراعية، التى يدعم ريع محاصيلها طبقة الكهنة. وتشير تقديرات إلى أن صوامع المعابد غالبا ما كانت تخزن ما يزيد عن إنتاج عامين من الحبوب.

## مقاييس ملكية

تظهر لوحات على جدران مقبرة «مينا» مسئولين حكوميين، يمدون حبلا عبر حقل، لتقدير مساحته، ومن ثم غلته المتوقعة. ويظهر فى أسفل الصورة كتبة، يلاحظون الأرقام ليسجلونها فى سجلات الحكومة، كما ينبغى. ويبلغ الذراع الملكى - وهو وحدة القياس الأساس - ٢٠,٦ بوصة (غير أنه يجب ملاحظة أنه كان يستخدم نوعا ثانيا من الذراع، فيما يبدو، طوله ٢٥ بوصة). واستخدم «خت» - بكسر الخاء - وهو مقياس يبلغ ١٠٠ ذراع ملكى، فى قياس الأراضى. وسميت قطعة الأرض البالغ مساحتها ١٠ آلاف ذراع ملكى مربع «سيتچات»، وهى تساوى نحو ثلثى آكر. وبالنسبة للقطع الصغيرة، يقسم الذراع إلى وحدات تسمى «أكف» التى تنقسم بدورها إلى وحدات تسمى «أصابع». واستخدم مقياس «ريمن» أيضا، ويبلغ طوله ٢٩,٢ بوصة، كوحدة للقياس مستلهمة من الذراع الملكى.

## علاقات العمل

كان الأسبوع لدى المصريين القدماء عشرة أيام عمل يليها ثلاثة أيام عطلة. ويتوقف العمل خلال العطلات الدينية المهمة. واستخدم الإنتاج الزراعى لدفع رواتب موظفى الحكومة والعمال على حد سواء. وكانت الأجور تصرف فى صورة قمح جاف، والشعير، والسمك، والخضراوات، والملابس، والزيوت. وبين حين وآخر توزع أجور إضافية مثل الملح، والجعة، والخمر، وغيرها من مواد الرفاهية. ويأتى بين أصحاب الحرف علية الأجور، الصناع والكتبة، بينما تضم الفئة الأعلى أجورا على الإطلاق موظفو المقبرة الملكية، بينما يقبع العمال غير المهرة، عند سفح سلم الأجور كالعادة.

وخلال شهور الفيضان، التى تمثل فترة راحة من أعمال الزراعة، يقوم البلاط الملكى والنبلاء باستدعاء الفلاحين للعمل فى الأشغال العامة، مثل إقامة نظم الرى، وإصلاح السدود، واستخراج المعادن، وإنشاء المعابد، وبناء المقابر، بالإضافة إلى الخدمة العسكرية. فكان هناك عمل دائما للقادرين بدنيا.

وحدث أول إضراب مسجل فى تاريخ مصر عام ١١٧٠ قبل الميلاد، خلال الشهر السادس من السنة التاسعة والعشرين من حكم «رعمسيس الثالث». عندما تأخرت الحكومة ٢٠ يوما فى صرف الأجور من الحبوب، فألقى العاملون فى وادى الملوك بأدواتهم وتركوا العمل، بعدما لم تلق التماساتهم استجابة. واحتشد الرجال فى مسيرة إلى معبد «حور محب»، المجاور للرعمسيوم، ونظموا اعتصاما سلميا خارج جدران المعبد. ورفضوا أن يتزحزحوا من مكانهم حتى فتحت صوامع القصر.

وأصر العمال على موقفهم، ورفضوا مناشدات المسئولين لهم للعودة إلى العمل. وفى النهاية، منحوا نصف مستحقاتهم، فى صورة ذرة وحصة من الحبوب، مع وعد بتسوية أحوالهم «فورا». وتطلب الأمر، عدة مسيرات احتجاج أخرى، قبل تسوية المظالم، وحصل العمال على أجورهم كاملة.

## الحرف

عمل فى المعابد والبلاط الملكى، العديد من المصريين كفنانين، ومعماريين، ونحاتين، وكتبة، ومعلمين، وخبازين، وجزارين، ومحاسبين، وسقاة، وموسيقيين، ونجارين. وصورت حرفة النجار على جدران مقبرتى «نيب آمون» و«إيبوكى». وكانت النجارة، والتصوير، والبناء بالحجارة، وصناعة الخزف من بين أقدم الحرف. وعمل الحرفيون المصريون فى دكاكينهم الصغيرة بنظام المشترك، حيث أنتجوا معظم السلع المصنعة. وتميز الطلب على النجارين بالارتفاع ليس من أجل صناعة أثاث المنازل فحسب، وإنما أيضا من أجل صناعة أثاث المقابر.

وشاركت نسبة ساحقة من النساء فى صناعتى النسيج والملابس، كما عملن فى ورش الغزل والنسيج لتقديم الأطعمة والمشروبات إلى النبلاء وأبناء الأسر الملكية. وفى بعض الأحيان، عملن فى صناعة الفخار، وحولت البارعات من هؤلاء

العاملات الطين إلى قطع بديعة للغاية من الخزف. واستخدم الفخار على نحو واسع فى صناعة آنية الطعام، والأكواب، والأقداح، والقدور، وآنية الزهور، والجرار والأطباق. وغالبا ما كان الخزف يصقل باستخدام المعادن، ويستخدم فى صناعة الحلى والتمائم البديعة. وأبدع صناع الفخار أوانى زهور من الطين الناضج المزخرفة، بأشكال متميزة لحيوانات، ووحدات زخرفية مائية، وصور بشرية؛ عثر على كثير منها يرجع إلى حقبة ما قبل التاريخ المدون، نحو نهاية الألفية الرابعة قبل الميلاد. كما استخرج نوع متميز من الفخار، يعود إلى عصر ما قبل الأسرات (الذى يبدأ نحو ٥٢٠٠ قبل الميلاد) من مقابر البدارى فى الوجه القبلى؛ وهى مرحلة «البدارى» من مراحل تطور الحضارة. ويمكن وصف الفخار فى هذه الفترة بأنه كان يتميز بسطح مموج مصقول.

وعثر على بعض من أروع القطع الفخارية فى مقابر الوجه القبلى، التى ترجع إلى نحو عام ٤٠٠٠ قبل الميلاد، فى قرية شمال «أواست» تسمى «نقادة». وأدت المنتجات التى اكتشفت فى هذه المنطقة إلى تسمية مرحلة حضارية أخرى، باسم نقادة الأولى أو العمرة. وعرف الفخار الذى يعود إلى هذه الفترة بأنه «الآنية ذات الحواف السوداء» وهو نوع متميز من الفخار الأحمر له حواف مزخرفة سوداء ناعمة، وهو التأثير الذى يحدثه حرق القدور فى وضع رأسى مقلوب.

كما عثر على أوانى حجرية للزهور، وسكاكين منحوتة بدقة من الحجر الصوان ترجع إلى عصر ما قبل الأسرات. وترجع بقايا ورشة فخار مكتشفة، إلى عصر الأسرة السادسة، ومن بين الأنقاض أماكن لإعداد الطين، وحرقه، وتجفيفه، وإضفاء اللمسات الأخيرة.

وعثر أيضا على مصنوعات جلدية تعود إلى حقبة ما قبل التاريخ المدون. فكانت الصنادل، والحقائب، والوسائد، وقرب الشرب تصنع من الجلد الذى استخدم أيضا لزخرفة الأثاث، وتغطية الآلات الموسيقية الخشبية مثل «الجنك» و«الكنارة».

وشهدت مصر طفرة اجتماعية، وحضارية، واقتصادية، خلال الفترة التى عرفت باسم «نقادة الثانية» (أو «جرزين») التى بدأت نحو ٣٦٠٠ قبل الميلاد. وزخرفت القطع الفخارية والآنية خلال هذه الفترة بمناظر حيوانات، وقوارب، ومشاهد من الحياة

البرية . ويبدو أن استخدام مثل هذه الوحدات الزخرفية ، جاء من التأثير الأجنبى الناجم عن التجارة مع البلاد الأجنبية . وفى أواخر هذه الفترة تطورت المساكن من أكواخ بسيطة بيضاوية الشكل مبنية من العيدان السميكة وفروع الأشجار ، إلى مساكن مثلثة الشكل مصنوعة من قوالب الطين المجففة تحت أشعة الشمس .

وترجع حقبة «نقادة الثالثة» إلى أواخر عصر ما قبل الأسرات ، (حوالى ٣٣٠٠ قبل الميلاد) ، الذى أسفر عن التوحيد الحضارى للوجهين القبلى والبحرى بعد قرنين من الزمان .

## الحجر والمعدن

تميزت مصر بوفرة المعادن والأحجار . وربما امتازت لبنان بأشجارها ، لكن مصر كان لديها المحاجر التى تنتج كميات ضخمة من الجرانيت ، والحجر الجيرى ، والحجر الرملى ، وهو ما مكن المصريين من بناء الأهرامات وغيرها من الآثار ، واحتاجت هذه المشروعات لتوظيف آلاف الرجال .

وكانوا يحصلون على الأحجار والمعادن شبه الكريمة من الصحراء بصفة أساسية . ويعتقد أن النحاس أول المعادن التى قام قدماء المصريين بتعدينها . وهناك دلائل على أنهم عرفوا ، منذ عصر ما قبل الأسرات ؛ طرق استخراج المعدن من خامات النحاس فى سيناء والصحراء الغربية ، والذهب من الوجه القبلى . وعثر أيضا فى مقابر ترجع لعصر ما قبل الأسرات ، على نماذج من معدن الرصاص ، الذى كان نادرا للغاية . وعمل آلاف الرجال فى المناجم ، فأنشأوا صناعة مهمة ومربحة ، تطورت ضمن منظومة يديرها كبار المسئولين والأمراء . وأصبحت المعادن احتكارات يسيطر عليها البلاط ، حيث خضعت إدارة المناجم والمحاجر لإشراف كبار رجال الدولة .

كما عثر على أزاميل لنحت الحجر الجيرى والنحاس تعود إلى عصر الدولة القديمة . وأنتج الصناع أسلحة ، وأدوات ، ومساحيق الزينة ، والحلى ؛ من الرصاص ، والذهب ، والفضة والنحاس . وعمل الأقزام ضمن العاملين فى تصنيع المعادن ، كما توضح لوحة عثر عليها فوق «مصطبة» وزير من الأسرة السادسة يدعى «ميريروكا» . ومن بين فئة الصناع ، كان العاملون فى صياغة الذهب الأكثر مكانة ، فهم يحيلون

الذهب إلى رقائق تستخدم فى تذهيب الأثاث، والأسلحة، والحلى، وأقنعة الوجه، والتوابيت. وكانت الفضة أكثر ندرة من الذهب فى هذه المنطقة، فاستوردت من الشرق الأقصى، واستخدمت فى صناعة المعدات، والأسلحة، وأدوات المائدة للأثرياء. وعثر فى مقبرة «توت عنخ آمون» على إناء زهور بديع على هيئة ثمرة رمان منقوش عليها زهور وأوراق شجر. وهذا الإناء مع بوق، هما الوحيدان المصنوعان من الفضة بين ما عثر عليه داخل المقبرة. كما دفن مع إحدى زوجات «تحتمس» السوريات، التى توفيت نحو عام ١٤٦٠ قبل الميلاد، مجموعة من الأقداح والعلب الصغيرة الفضية الرائعة، عليها نقوش هيروغليفية.

وتطورت تقنية التعدين تدريجيا، ووجد المصريون وسيلة لإنتاج البرونز، ثم الحديد، اللذين كانا الأفضل لصناعة المعدات والأسلحة، إذا أمكن الحصول عليهما. وأطلق على الحدى اسم «با-إت-بت» (المعدن القادم من الفردوس أو السماء) وربما يوحى ذلك بأن المعدن انصهر أولا من النيازك والشهب. ونال الحديد تقديرا عاليا نظرا لندرته فضلا عن قوته. وبدأ تصنيع السيوف والمعدات الحديدية للمرة الأولى نحو أواخر الدولة الحديثة. وخلال عصر الأسرة الثالثة والعشرين، أصبح الحديد معروفا على نحو أكبر، ولكن لم ينتشر استخدام الحديد على نطاق واسع إلا فى العصر الإغريقى الرومانى. وتظهر السجلات أن أحد ملوك «الحثيين» أرسل سيفا حديديا إلى «رعمسيس الثانى» نحو عام ١٣٠٠ قبل الميلاد، ووعده بهدايا مماثلة من نفس المعدن.

ويعتبر المصريون القدماء أول من طور علم استخراج وتصنيع العديد من المعادن. واستخدموا الزئبق لفصل الفضة والذهب من الخامات الأولية. وتخلفت عن هذه العملية مادة سوداء، كان يعتقد أنها تحتوى على قوى هائلة، حيث كان يظن أنها تحتوى المكونات اللازمة لتحويل المعادن الرديئة إلى ذهب. وحور العرب الكلمة المصرية المعبرة عن هذا المسحوق الأسود (أسود أى «خم» فكما ذكرنا سابقا أطلق المصريون على وطنهم «خم» بمعنى الأرض السوداء، كنوع من أنواع التقدير للتربة السوداء الخصبة والغنية التى يخلفها النيل وراءه) بإضافة حرفى «ال»، ومن ثم أصبح هذا الفن يدعى «الخمياء»، أو الكيمياء كما نعرف الآن. وبهذا المعنى ترجع جذور الكيمياء إلى مصر القديمة.

# -٩-

# النقل

## السير مع التيار

كان النيل السيد المهيمن، هو الشريان الرئيسى، لحركة التجارة، وجميع أنواع الانتقالات الأخرى. كما كان (ومازال بالطبع) الطريق الرئيسى الذى يربط جميع المدن المصرية بعضها بالبعض. وبحلول عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد، صنع المصريون أطوافا من حزم أعواد نبات البردى، مربوطة بحبال من الألياف المجدولة. وبعد قرنين من الزمان، أصبح لديهم حاجة متزايدة لاستيراد السلع، والدفاع عن بلدهم، ونقل المواد الثقيلة؛ فاستلزم ذلك بناء مراكب أكبر وأقوى قادرة على الملاحة فى البحار المفتوحة. فتطلب الأمر الحصول على ألواح الخشب السميكة، وهو ما يعنى استيراد الأخشاب.

ومكنت المراكب البسيطة المصنوعة من الخشب - أو «حيتى» - والحبال، المصريين من السفر، والتجارة مع البلاد الأخرى، ونقل مسئولى الحكومة والعمال، وشحن السلع بما فى ذلك أحجار البناء، والمسلات؛ فضلا عن تحريك القوات والقتال فى المعارك البحرية. ولم تكن السفن الحربية المصرية هى الأفضل فى المنطقة، غير أنها ساهمت فى إنجازات هائلة أحرزها «تحتمس الثالث» و«رعمسيس الثالث» فيما يتعلق بالتوسع التجارى والمعارك البحرية. وحظيت البراعة المصرية فى مجال بناء القوارب والمراكب الشراعية بأهمية حيوية لقوة البلاد اقتصاديا وسياسيا. وأسفرت التجارة والاتصالات بين الفرعون والحكام الأجانب، عن بروز مصر كدولة موحدة ذات نفوذ فى العالم القديم، بينما أسهمت فى توسعة المملكة. وكان تأمين سبل اتصال جيدة بين الوجهين القبلى والبحرى، فضلا عن الاتصال بين الفرعون وحكام الأقاليم المصرية، أمرا ضروريا. وباستخدام المعديات، تحقق ذلك بسهولة واستمر مع سفر المصريين القدماء

شمالا وجنوبا عبر النيل. وواصل المصريون صنع القوارب الصغيرة والأطواف من أعواد البردى، وغالبا ما استخدمت أطواف البردى الصغيرة فى صيد السمك. وكانت هذه الأطواف تستقر فى المياه الضحلة، للصيد بالشباك. بينما استخدم الصيادون الحراب والرماح للحصول على الأسماك فى المياه العميقة.

وبحلول عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد، كان المصريون قد صنعوا القوارب الشراعية، وأصبحت الرياح قوة دفع، وهو مبعث راحة لمن يتولون بالتجديف! . ونظرا لأن الرياح تهب من الشمال بوجه عام، كما أن الإبحار عكس الرياح لم يكن قد عرف بعد، فقد استخدمت المجاديف بصورة أفضل فى السفر باتجاه مجرى النهر، بينما خففت المراكب الشراعية من صعوبة السفر ضد التيار. وصممت الأشرعة بحيث يمكن فكها عند عدم الحاجة لاستعمالها. وأصبحت الكلمة المعبرة عن الإبحار مع مجرى النهر «خد» - بكسر الخاء - ويمثلها شكلا يصور قارب بلا شراع، بينما تشير «خنيتى» إلى الإبحار عكس التيار، ويمثلها قارب له شراع.

وتركزت معظم القرى والمعابد قرب النيل، ويمكن الوصول إليها بالقارب (الذى أسماه المصريون «ديبيت») - وهو أمر منطقى أيضا، حيث تنقطع الطرق خلال موسم الفيضان السنوى، وتعزل القرى بعضها عن البعض الآخر. ومن ثم، كانت القوارب أكفأ وسائل السفر والانتقال على مدار العام، حتى بعد أن جلب الهكسوس معهم العجلات خلال عصر الاضمحلال الثانى.

وبحلول عصر الأسرة الثالثة، شقت المراكب التجارية المصرية البحر الأحمر وشرق البحر المتوسط، حاملة البضائع، فى مغامرات منتظمة. ولم تكن القوارب تستخدم فقط كمراكب لشحن البضائع فى البعثات التجارية، ولكن استخدمت أيضا فى نقل كتل الجرانيت من المحاجر إلى المواقع المختارة لبناء المعابد والأهرامات. وقامت المراكب الكبيرة بنقل أعمدة ضخمة من الأحجار والمسلات - التى يزيد وزنها عن ٣٠٠ طن - لتزيين القصور الملكية والآثار المقدسة. كما استخدمت المراكب أيضا فى المواكب الاحتفالية، حيث تحمل صورة المعبود على هيئة تمثال خلال الاحتفالات الدينية. وخلال عيد «أوپت» السنوى المكرس لآمون (الخالق) حيث يجر تمثاله على مركب كبير من بيته فى معبد الكرنك إلى معبد آخر فى الأقصر.

## كيف تواصل الحياة بعد وفاتك؟

مثلت القوارب والمراكب الوسيلة الرئيسة للنقل، ليس للأحياء فحسب وإنما للراحلين أيضا. وكان يعتقد أنه مع الشروق، تبدأ الشمس رحلتها اليومية فوق السموات على ظهر مركب الشمس، التى يقف رع عند دفتها. وتصحب أرواح الذين رحلوا فى ذلك اليوم رع والشمس فى الرحلة عبر السموات. وعند الغروب، يأخذ مركب الشمس الراحلين حديثا عبر مملكة العالم السفلى إلى محكمة «أوزيريس»، حيث يحكم على كل امرئ وفقا لما قام به من أعمال فى حياته. ولهذا الغرض، تركت نماذج لقوارب صغيرة مع الراحلين فى قبورهم. وقد عثر على نموذج خشبى لمركب الشمس الخاص بالفرعون «توت عنخ آمون» بين كنوزه الكثيرة، كما كدست بين ممتلكاته سبعة نماذج لقوارب. وأحد هذه النماذج منحوت من المرمر المزخرف ومثبت فوق قاعدة مطلية. ونحت القارب ببراعة على هيئة وعل ذى رأسين، واستكمل الشكل بقرون حقيقية. وعلى ظهر القارب شخصان، أحدهما قزم يدفع المركب للأمام، والآخر فتاة صغيرة تشبك برعم زهرة لوتس على صدرها. وعثر أيضا على عدة نماذج لقوارب وعلى ظهورها رجال ونساء، فى مقبرة مستشار من عصر الأسرة الحادية عشرة، يدعى «ميكيترا»، مع نماذج مصغرة من قوارب النزهة التابعة له، بالإضافة إلى نموذجى مركب من البردى، مع ١١ صيادا يجذبون شبكة مليئة بالسمك.

وغير بعيد عن هرم خوفو الأكبر فى الجيزة، عثر فى العام الميلادى ١٩٥٤ على حفرة ضخمة مثلثة الشكل ويبلغ عمقها مئة قدم. وتحتوى هذه الحفرة مركب شمس الملك خوفو الاحتفالية مسطحة القاع، وهى مفككة. واعتبرت هذه المركب أقدم سفينة مكتشفة على الإطلاق. وكانت الحفرة مغطاة بما يزيد عن أربعين كتلة من الحجر الجيرى الملتصق، وتحمل ألواح ضخمة من خشب الأرز الرائع من بابل، فضلا عن اثنى عشر مجدافا، وبلغ عدد القطع التى عثر عليها ما يزيد عن ألف قطعة، مرتبة فى ١٣ مجموعة. وقد وضعت علامات على القطع الرئيسة، حتى يمكن تجميعها بسهولة. وفى أقل من ١٤ عاما جرت إعادة تجميع المركب، الذى بلغ طوله ١٤٠ قدما، وهو معروض حاليا فى متحف مركب الشمس بالجيزة. وربما كان هذا هو المركب الذى نقل خوفو فى رحلته الأخيرة إلى مكان مقبرته، أو ربما لم يستخدم هذا المركب على الإطلاق، وكان المقصود منه نقل «خوفو» إلى الحياة الأخرى.

ولم يكن المصريون محبين للسفر، وعندما يضطرون لمغادرة أرضهم، كانوا يفعلون ذلك فى ذعر هائل. . فالموت فى أرض أجنبية من شأنه أن يحول دون إجراء مراسم دفن صحيحة، وهذا يمنع الشخص من أية فرصة للخلود.

## فى البر

أما الانتقال برا، فيمارسه العامة سيرا على الأقدام، أو فى أحسن الأحوال يركبون الحمير. ويستقل أفراد الأسرة الملكية، والأثرياء، وقادة الجيش، محفة أو هودجا مصنوعا من الخشب الفاخر المستورد، مثل الأبنوس. ويدعم هذه المحفات أعمدة خشبية مطلية بالذهب، ويحميها من الشمس مظلة أو سقف يحمله موكب من الخدم.

وعلى الرغم من أنه يبدو أن الخيول استخدمت فى العديد من الأغراض بعدما جلبها الهكسوس (خلال غزوهم لمصر فى عصر الاضمحلال الثانى)، إلا أن هناك دليلا على أن استخدام الخيول بدأ قبل ذلك بمائتى عام، فى شكل نحت لحصان يعود إلى نحو العام ٢٠٠٠ قبل الميلاد. بالإضافة إلى العثور على بقايا عظام خيول من عصر الدولة الوسطى. وما أن جلب الهكسوس المركبات ذات العجلات والخيول (حوالى ١٦٠٠ قبل الميلاد)، حتى أخذ الأثرياء يركبون المركبات التى يجرها الخيول، وكانوا يسمون هذه المركبات المصنوعة من المعدن «السفن التى تبحر فى الصحراء». واستعملت الخيول لجر مركبات صغيرة خاصة للصيد، بالإضافة إلى الانتقال. واستخدمت مركبات أكبر فى الحملات الحربية، ومواكب الاحتفالات. وفى مناسبات خاصة تزين الخيول بزخارف فخمة منها أقنعة بديعة التصميم، وشراريب طويلة، وريش طيور كبيرة. ويقتصر هذا الاستعراض على أفراد الأسرة الملكية، وكبار مسئولى البلاط، وقادة الجيش؛ حيث مثلت الخيول ترفا، فهى باهظة الثمن، فضلا عن تكلفة تربيتها المرتفعة.

ولم يستخدم الجنود المصريون الخيول كفرسان، وإنما لجر العجلات الحربية بالتحديد. فهل اعتبروا امتطاء ظهور الخيل أمرا مهينا؟ . . ويعتقد أن «رعمسيس الثانى» امتلك العديد من اسطبلات الخيول التى غطت مساحة تبلغ نحو ألفى متر مربع.

وعرفت الإبل فى مصر القديمة، رغم أنها لم تصبح وسيلة انتقال مهمة حتى جلب الفرس معهم أعدادا كبيرة منها عند غزوهم البلاد (٥٢٥ قبل الميلاد). وكان الجمل قادرا على البقاء من دون طعام وشراب لفترة أطول من الحمار، كما كان أسرع فى الترحال. وقد عثر على قبر لجمل يرجع إلى عصر الأسرة الأولى والثانية، وفى «چدو» عثر على أوانى للزهور منحوتة على هيئة هذا الحيوان، ترجع إلى الدولة القديمة.

## من قصص العصور

نقشت على بردية ترجع إلى نحو ١٨٠٠ قبل الميلاد، مجموعة من قصص مغامرات فى أعالى البحار، منها قصة شعبية بعنوان «الملاح التائه». وتبدأ ببحار يقص على الوزير الأكبر، قصة اصطدامه الهائل بجزيرة زاهرة فى عرض البحر المتوسط، مع تعهده بهدايا للملك. فقد أبحر البحار ومعه ٥٠٠ من أشجع رجال مصر وأكثرهم حنكة، على ظهر سفينة ضخمة يزيد طولها عن مئة قدم وعرضها عن ثلاثين قدما، فى بعثة إلى المناجم. وبينما هم مبحرين، هبت عليهم رياح هوجاء، وعاصفة مهلكة. واصطدمت السفينة بأمواج عاتية، وصل ارتفاعها إلى ٣٠ قدما، فهلك العديد من الرجال، سقوطا فى البحر، وفى النهاية تبعتهم السفينة نفسها.

وألقى بحارنا، الذى يجاهد للبقاء على قيد الحياة، بنفسه من فوق المركب الذى بدأ فى الغرق؛ وتشبث بلوح من الخشب، وظل التيار يجرفه وهو متشبث باللوح الطافى لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال. وفى اليوم الرابع، طرحته موجة عملاقة على شاطئ جزيرة غريبة وغامضة؛ جزيرة «كا». فزحف لاهثا إلى مأوى تحت شجرة.

وبعد أن استراح قليلا، سرعان ما قرر أن يستكشف ما حوله، ويبحث عن ناجين آخرين. وتسمر من هول المفاجأة عندما رأى قدرا هائلا من الكروم والشجيرات التى تحمل العنب، والتين، والتوت. وشاهد حيثما وجه بصره، فيضا من الحياة: القمح، والشعير، والخيار، والكراث، والبطيخ، والسمك، والطيور، والأفيال، وأفراس النهر، والقرود، والكلاب، والزراف؛ كلها تجول فى الجزيرة غير الآهلة بالبشر. وبعد أن ملأ معدته بالفاكهة، قرر أن يحفر حفرة ويشعل فيها النار. وشرع فى طهى بعض اللحم وسمكة لنفسه، وقدم قرابين مشوية للآلهة امتنانا من أجل سلامته، وحسن حظه.

وسرعان ما بدأت الأرض تهتز، والأشجار تضطرب. وفجأة برز ثعبان عملاق جسمه مكسو بحراشف ذهبية، رافعا رأسه نحو البحَّار الممتلئ رعبا. وفتح الثعبان فكيه، وتحدث الثعبان بصوت هادر، سائلا البحار عن المكان الذى جاء منه ـ وقال إنه إذا كانت إجابة البحار مغايرة لما كان ـ الثعبان ـ قد سمعه فعلا من قبل، فسيلتهمه.

وحكى البحَّار، وهو يرتعد رعبا، قصة العاصفة المهلكة، وموت زملائه من طاقم السفينة. وكان فزعا حتى أن الثعبان تحدث، وطمأنه أنه آمن لأنه جاء للجزيرة عبر البحر، وأنه كان المختار والناجى الوحيد من الكارثة التى هلك فيها العديد من الرجال العظماء. وكشف الثعبان عن أنه واحد من ٧٥ ثعبانا عاشت على الجزيرة، بالإضافة إلى فتاة صغيرة جاءت مؤخرا، عندما سقط نجم(*). وأخبر الثعبان البحار أن لديه نعمة القدرة على التنبؤ، وتنبأ له بأن سفينة إنقاذ ستصل خلال أربعة شهور لتعيده إلى بلده. ونظرا لإحساسه الغامر بالامتنان، تعهد البحار بالعودة إلى الجزيرة ومعه كنوز وقرابين ـ عطور، وبخور، وحيوانات من مصر ـ كهدايا للثعبان.

وضحك الثعبان؛ فلم تكن جزيرته بحاجة لأى شىء يمكن أن يحضره البحار. وأضاف أن جزيرة «كا» سوف تغرق فى البحر الذى جاءت منه بعد أن يرحل البحار، ولن تظهر نفسها مرة أخرى إلا للتائه المختار التالى.

وبعد مرور أربعة أشهر، وصلت السفينة. وأهدى الثعبان للبحار هدايا من العاج، والكحل، والعطور الفاخرة، ونبات السنا، والتوابل، والأخشاب، والذهب، والفضة، والزراف، والقرود، ليأخذها معه إلى مصر. وأمضى هو ورفاق السفينة الجدد شهرين مبحرين، وشاهد الجزيرة تتضاءل وتتضاءل حتى اختفت من مجال البصر ـ تماما كما أخبره الثعبان.

وتأثر الوزير بهذه القصة للغاية، ونقلها للفرعون، الذى أمر بدوره رئيس الكتبة «آمون أمونا» بتدوينها على البردى. وكوفئ البحار بمنصب كبير موظفى القصر، تعويضا له عن محنته ومكافأة عن روح المغامرة ـ أو ربما لإبداعه فى اختراع هذه القصة لتفسير الكيفية التى أصبح بها ثريا!

(*) القصة مذكورة باختلاف بسيط فى التفاصيل فى موسوعة سليم حسن «مصر القديمة»، الجزء السابع عشر، حيث يذكر الثعبان فى صفحة ٥٣ إلى أن شهابا سقط على الجزيرة فأحرق بقية الثعابين والطفلة، وبقى هذا الثعبان وحده ـ المترجمة.

## - ١٠ -

# التجارة الدولية قديما

فى العصور القديمة، جاب المصريون البحار فى سفن تجارية، وأقاموا علاقات تجارية مع العديد من البلاد. وبمرور الوقت، أقيمت طرق للتجارة إلى النوبة، وبلاد بونت، وقبرص، وسوريا، وبلاد الإغريق، وكريت. وكانت الحبوب سلعة تصدير مثمرة ومربحة، ومثلها ملح النطرون، والبردى، والجعة، والنبيذ، والعطور، والحلى، والقرميد، والكتان. وعززت التجارة مع النوبة وسيناء من الوضع السياسى والاقتصادى لمصر، وساعد الذهب على كسب الدعم السياسى من الحكام الآسيويين.

### الأخشاب

نظرا لندرة الأنواع الجيدة من الأخشاب المحلية، استوردت مصر الخشب بكميات كبيرة. فلم تكن الأشجار المحلية ـ الجميز، والطرفة، والسنط ـ تنتج خشبا من نوعية تصلح للبناء. وكان الطلب شديدا على الخشب للبناء، وصناعة الأبواب، وإطارات النوافذ، والتوابيت، والأثاث، والأسلحة، والآلات الموسيقية، والسفن ـ فمن دون خشب الأرز لم يكن المصريون بقادرين على بناء السفن الرائعة التى خاضوا بها المعارك. كما استوردوا الأبنوس، وغيره من الأخشاب الصلبة الاستوائية من شرق أفريقيا، وغالبا ما كانوا يبادلونها بأخشاب مثل الأرز، والصنوبر والسرو من بابيلوس (لبنان حاليا).

وكانت بابيلوس من أهم شركاء مصر التجاريين فى ذلك العصر، حيث كانت تورد الحديد والفضة والأخشاب. ويرجع استيراد مصر لخشب الأرز من بابيلوس إلى عصر

الأسرة الأولى، واستمر حتى ما قبل قرن من الميلاد. وكان موقع ميناء بابيلوس استراتيجيا حيث وفر وسيلة ملائمة للحصول على الأشجار المطلوبة بشدة. وأطلق الإغريق على هذه المدينة، وعلى البردى، اسم «بابيليا»، وفيما بعد كانت هذه التسمية تعنى «الكتاب» ومنها جاءت تسمية «الكتاب المقدس» باليونانية.

## كنوز من كل نوع

جلب المصريون الفيروز من صحراء سيناء. وترجع تجارة مصر مع سيناء إلى بداية عصر الأسرة الثالثة، حيث استوردت منها النحاس والأحجار شبه الكريمة، والزيوت، وخشب الأرز. ويعتقد أن المصريين استوردوا القصدير من بلاد فارس والشام. وجلبوا التوابل وجلود الحيوانات النادرة من مناطق فى أنحاء الشرق الأوسط. وبدأ استيراد الخيول خلال عصر الدولة الحديثة، وسرعان ما أصبح الحيوان الأليف الوحيد الذى يتم التعامل فيه تجاريا بكميات كبيرة مع البلاد الأخرى.

ورغم أن إنتاج مناجم الذهب المصرية كان معقولا، إلا أن المصريين استوردوا أيضا الذهب من النوبة (فى السودان). وأطلق المصريون على الذهب اسم «نوب» ومن ثم أصبحت «نوبيا» تعنى «أرض الذهب». ومن النوبة جاءت التوابل المستوردة، والعاج، والنحاس، والأبنوس، والصمغ، والأخشاب، والجرانيت، وحجر الجمشت؛ وجرى تبادل هذه السلع مقابل معادن أخرى ولفائف البردى المصرية، والقمح، والشعير. وأمدت النوبة مصر أيضا بريش النعام، وجلود النمر، وحلقات الذهب، والعبيد، والحيوانات مثل القرود، والزراف، والكلاب، والماشية فى مقابل السلع المصنعة المصرية ومن بينها الأدوات النحاسية، والسمك المملح، ومنتجات الجلود، والكتان بالإضافة إلى الحبوب.

ومن «أرض البخور» المعروفة باسم «بونت» استورد المصريون شجيرات العطر لصناعة العطور، والزيوت والبخور(الذى كان يعرف باسم سنتجر). وترجع العلاقة التجارية بين مصر و بلاد «بونت» إلى عصر الأسرة الخامسة. وخلال عصر الأسرة الثامنة عشرة، خرجت الملكة «حتشبسوت» على رأس بعثة تجارية من خمسة سفن إلى بلاد «بونت»، وسجلت هذه البعثة على جدران معبد الدير البحرى. ونتيجة لهذه البعثة التى سافرت خلال السنة التاسعة من حكم «حتشبسوت»، جلبت الملكة ورجالها

إلى مصر كميات كبيرة من البخور والحيوانات النادرة. وتحدثت المشاهد التفصيلية المسجلة على جدران المعبد الكثير عن الرحلات التجارية إلى «بونت».

وفى عهد الملك الطفل «پيپى الأول» الذى حكم خلال عصر الأسرة السادسة، أرسلت بعثة شهيرة أخرى. وقاد هذه البعثة "حارخوف" الذى أرسل رسالة إلى الفرعون يخبره فيها إنه التقى بقزم راقص مسل. وابتهج الفرعون الذى كان طفلا، وانتظر عودة البعثة بلهفة. ووصل «حارخوف» والقزم سالمين؛ وطبقا للنقوش على مقبرته، عاد «حارخوف» ومعه ٣٠٠ حمار، حاملين شحنة من البخور، والزيت، والحبوب، وجلود النمر، والأبنوس، وسن الفيل. وحصل «حارخوف» على مكافأة مجزية، ورقى إلى منصب حاكم الإقليم الذى يقيم فيه.

ويعتبر المصريون أول من عرف تشكيل الزجاج، فأبدعوا قطعا فنية فى هيئة جرار، وزخارف وأشكال. ومنذ عصر الدولة القديمة، كانت التمائم والتماثيل الصغيرة للحيوانات تصنع من الزجاج. وقد عثر على بقايا أعمال زجاجية ترجع إلى عصر الأسرة الثامنة عشرة. وتوضح اللوحات المنقوشة على المقابر، انتشار صناعة تشكيل الزجاج انتشارا كبيرا. وحظى هذا الفن بشعبية خلال عصر الدولة الحديثة، عندما بدأ تسويق الأوانى الزجاجية على نطاق واسع، وأصبحت اللآلئ المقلدة المصنوعة من الزجاج سلعا للتصدير.

أما الخزف، أو على الأصح مزيج التزجيج(*) (الذى أطلقوا عليه تچيهنت)، فيصنع بتسخين مسحوق الكوارتز. وأصبح صقل الخزف الأسلوب السائد فى زخرفة التماثيل والآنية خلال الدولتين الوسطى والحديثة، نظرا لكونه أقل تكلفة من حجر اللازورد، المستورد من أفغانستان. وصارت الحلى، والتمائم، وأوانى الزهور والأقداح ضمن المنتجات الهائلة المصنوعة من الخزف، وسرعان ما أصبحت صادرات مشهورة.

## الموازين

استخدمت الموازين القياسية لوزن السلع، وحساب قيمتها. فكان «دبن» - بكسر

(*) وفقا لتعريف مجمع اللغة العربية هو «خليط مصهور من الرمل والأكاسيد يستعمل فى صنع الزجاج والخزف». ويسمى فى معاجم أخرى الفريتة - المترجمة.

الدال والباء يعادل٣,٣ أوقية. أما «كايت» (الذى ظهر بعد عصر الأسرة الثانية عشرة) فيزن ٣,٠ أوقية. واستخدم «كايت» لوزن الذهب والفضة، بينما استخدم «دبن» لوزن النحاس.

ولا يعتقد أن العملات استخدمت قبل الغزو الفارسى، حوالى ٥٢٥ قبل الميلاد. حيث كانت حلقات غير مدموغة من الفضة والنحاس، تستخدم قبل ذلك كقيم نقدية. وتتم المقايضة باستخدام سلع مثل الذهب، والفضة، والنحاس والحبوب. وانتشرت الأسواق فى المناطق المفتوحة، كمراكز تجارية حيث تجرى المقايضات والمعاملات التجارية.

* * *

## - ١١ -

# القانون والحكومة

أصبحت مصر أول أمة، أو دولة، موحدة فى العالم، مع ضم إقليمى الوجه القبلى والوجه البحرى، كقطر واحد تحت حكم الفرعون، حوالى عام ٣١٠٠ قبل الميلاد، فى أوائل عصر الأسرات. واحتاج هذا الكيان القومى الكبير لعمل منسق ومنظم على نطاق واسع، مع نظم إدارية جديدة وحكومة لإدارتها.

وكان الفرعون أكثر الأشخاص نفوذا فى مصر، حيث يعتقد أنه نصف بشر ونصف إله، أى هو تجسيد للمعبود. وكملك وحاكم، أعتبر وسيطا بين جماهير مصر وآلهتها. ونظرا للاعتقاد فى أنه مختار من قبل الآلهة أنفسهم، اعتبر الفرعون حائزا لأسرار السماء والأرض. ومنحت هذه القوة الكلية المتصورة سلطات كاملة للفرعون، ووضعت على عاتقه مسئوليات عديدة تجاه شعبه وتجاه الآلهة. فكانت أهم واجباته خدمة الآلهة من خلال الحفاظ على السلام والانسجام فى ظل قوانين «ماعت». فسيطر الفرعون على الحكومة، والجيش، والاقتصاد بأكمله. ووضع القوانين المنظمة، وأدار البعثات التجارية والتعدينية، وأشرف على أعمال الرى، وتولى إدارة السلطة القضائية؛ فكان الكاهن الأكبر، والقائد الأعلى للجيش، والمسئول عن تطبيق القانون.

ولما كانت هذه الالتزامات، أكثر من أن يستطيع شخص واحد القيام بها مباشرة، فقد كلف الفرعون مسئولين وكهنة لتنفيذ المهمات الحكومية، والقيام بالوظائف الدينية. وقسمت الحكومة إلى فروع: الخدمة المدنية، والدينية، والعسكرية. واعتبر الوزير - الذى يعينه الملك من بين أبناء الأسر الملكية - أعلى المسئولين مكانة، ويشار إليه

باعتباره «الرجل الذى نرفع إليه تقاريرنا جميعا». ولم يكن الوزير أو المشرف العام الذى يسميه المصريون «تچاتى» يساءل إلا بواسطة الفرعون، الذى يتولى تنفيذ أوامره وقراراته. ومن ثم، فهو على اتصال يومى وثيق مع الفرعون، وأيضا مع كبار الكهنة، وقادة الجيش؛ ويهتم بأمور الأعمال، وتطبيق القوانين فى أنحاء البلاد، متنقلا نائبا عن الفرعون ومتحدثا باسمه. وترجع السجلات الموجودة والمذكور فيها إشارة إلى منصب الوزير فى مصر، إلى عصر الأسرة الثالثة. وفى أول الأمر كان الفرعون يعين وزيرا واحدا؛ وبحلول الأسرة الثامنة عشرة صار يعين وزيرين الأول للوجه القبلى من «أواست» ويحكم الثانى الوجه البحرى من «منف».

وشملت مسئوليات الوزير الإشراف على أمور العدل، والزراعة، والرى، ومشروعات البناء والأشغال العامة. ويتولى الوزير أيضا المالية، والإيرادات، وجباية الضرائب، والنظام العام. كما يشرف على صوامع الغلال، والمزارع، والمناجم، والمحاجر. وبالتالى، يمكن للمرء أن يتخيل أن يحصل الوزير فى المقابل على ثروة وامتيازات ضخمة.

وخلال عصر الأسرة الثانية، قسم الوجهين القبلى والبحرى، إلى أقاليم إدارية؛ أطلق عليها المصريون «سيبات». ولكن ربما كان القارئ على معرفة أقرب بالتعبير اليونانى «نوم»(*). وقسم الوجه القبلى إلى ٢٢ إقليما، وضم الوجه البحرى ٢٠ إقليما. وكثيرا ما كانت الحدود تتعرض للتعديل، غير أن عدد الأقاليم ظل ثابتا عند رقم ٤٢. ولكل إقليم خزانته الخاصة، ومركزه الإدارى أو العاصمة، ومحكمة، وجيش، ومعابد مخصصة لآلهة معينين تعبد فى هذه المنطقة بوجه خاص. ويعين الفرعون حاكما للإقليم يدير شئون إقليمه، ويتولى تنفيذ المهمات الملقاة عليه، ويحافظ على النظام داخل الإقليم، بينما يسهم فى نجاح إدارة البلاد ككل. ويخدم كل حاكم إقليم ضمن الحكومة المركزية الرئيسة، ويدير إقليمه فى ظل السلطة المنفردة للفرعون. ويرفع حكام الأقاليم تقاريرهم اليومية للوزير (الوزيرين). وللوزير هيئة موظفيه التى تتكون من مسئولين حكوميين ومشرفين آخرين، يخضعون لسلطته. وهؤلاء المسئولون يعملون كجهة اتصال مع الفلاحين والمزارعين. ويعمل تحت سلطة هؤلاء المشرفون الكتبة، الذين يحفظون سجلات بجميع التعاملات ويسجلون جميع المعلومات الضرورية التى يطلبها الفرعون.

(*) المؤلفة تقصد بالطبع القارئ للكتاب الأصلى بلغته الانجليزية ـ المترجمة.

وكانت مصر دولة ثيوقراطية، حيث سيطر رجال الدين عليها جزئيا. وعمل العديد من الكهنة كمستشارين ووزراء للفرعون، لمجرد أنهم اعتبروا جديرين بهذه المسئوليات. وخلال عصر الأسرة الخامسة، تزايدت سلطات الكهنة وبدأوا ينافسون الفرعون. وللحفاظ على علاقات ودية، بين السلطتين، ولمصلحة التعاون المتبادل، استثنى الفرعون الكهنة من دفع الضرائب. ولم تسفر هذه الخطة إلا عن تعزيز السلطة الدينية، وإلى حد ما، إضعاف اقتصاد الدولة؛ ومن ثم ساهم فى أفول الدولة القديمة.

وبحلول عصر الأسرة السادسة، حصل حكام الأقاليم أنفسهم على سلطات ضخمة، منحتهم امتيازات وحصانات عديدة. وعندما أصبح المنصب وراثيا، بدأت سلطات حكام الأقاليم واستقلاليتهم تتزايد، ولم يعد الفرعون يستطيع الاعتماد عليهم، مما ساهم أيضا فى سقوط الدولة القديمة.

وبمجىء عهد الدولة الوسطى وما بعدها، بدأ الفراعنة والوزراء تنظيم الإدارة على نحو مغاير. فأصبح يمكن لأى ذكر متعلم ومؤهل الالتحاق بالعمل الحكومى. وخلق هذا العامل طبقة من المصريين الأكفاء القادرين الجادين فى العمل الذين يستحقون الحصول على مقابل مجز لعملهم. واتسعت فرص التوظيف المهنى، حيث ظهرت مناصب جديدة بحاجة لمن يشغلها. وبدأ فتح المدارس لتأهيل الرجال ليصبحوا كتبة وموظفين رسميين، وساهم ذلك كله على نحو كبير فى دعم اقتصاد البلاد.

ويعتبر «إمحتب» العظيم أبرع وأشهر الوزراء، ويعنى اسمه «أقبل فى سلام». وهو وزير الفرعون «زوسر» من الأسرة الثالثة. وبدأ «إمحتب» حياته كرجل من العامة، ولكنه ترقى عبر صفوف الحكومة وخدمة المعابد، ليصبح الكاهن الأكبر لمعبد «بتاح» مستشار الفرعون وكاتم أسراره. ولم يكن وزيرا فقط، ولكن أيضا طبيبا بارعا وكاتبا. واشتهر بعبقريته المعمارية؛ حيث صمم أول أثر فى التاريخ بنى من الحجر كليا، وهو هرم سقارة المدرج. واعتبر «إمحتب» حكيما، وبحلول الدولة الحديثة صار «راعى الكتبة»، وابن الإلهين العظيمين «بتاح» و«سخمت». وبعد ألفى عام، تأله «إمحتب» تماما وصار إله الحكمة، والطب، والعمارة، والفلك. وكان الوحيد من غير أبناء الأسر الملكية الذى يؤله ويعبد فى مصر. وبنيت المعابد فى أنحاء البلاد لعبادته. وقد عثر على تماثيل من البرونز تصوره كإله. واعتبر الإغريق «إمحتب» هو نفسه «أسكليبيوس» إله الطب عندهم.

## القانون والنظام

مثلت «ماعت» القانون الأساس لجميع الطبقات الاجتماعية. وشكلت العدالة، والاحترام، والأخلاق القيم التى عاش بها جميع المصريين؛ ولم يكن هناك من هو فوق هذا القانون على الإطلاق. وبوجه عام، كان المواطنون فى مصر القديمة طائعين للقانون، حيث خشوا العقاب فى الحياة الدنيا والآخرة. وكانت الدعاوى القضائية تنظر فى المحاكم المحلية، باستثناء الجرائم التى تنطوى على عقوبة الإعدام، التى ينظرها الفرعون باعتباره القاضى الأعلى. وأقيمت فى كل إقليم المحاكم التى عرفت باسم «كينبيت». وأنشئت محكمة عليا فى عاصمة كل إقليم. ودارت أشهر دعوى قضائية فى مصر القديمة حول «مؤامرة الحريم» ضد «رعمسيس الثالث». حيث حوكم أربعين شخصا، من ضمنهم زوجة ثانوية للفرعون، وأحد كبار المسئولين يدعى «هوى» كان يشرف على قطعان ماشية الملك، وأحد قادة الجيش، والمشرف على الخزانة، وعدد من الكتبة، وخدم من القصر وستة نساء من الحريم. وتولى نظر هذه الدعوى ١٤ قاضيا، وأصدروا أحكامهم ضد المدانين بتشويه وجوه البعض، وإعدام البعض الآخر.

واعتبر الحنث باليمين، والرشوة، والسرقة، وتخريب أو نهب المقابر، وحيازة سلع مسروقة ومقاومة مسئولى الدولة تهما جنائية، بينما اعتبرت سرقة المقابر أسوأها. وفى عهد «رعمسيس التاسع» اتهم بَنَّاء اسمه «أمون بنفر» بسرقة مقبرة، وانتزعت منه اعترافات تفصيلية بواسطة ضربه بالعصى. كما اعتبرت جريمة عدم الوفاء بالدين خطيرة للغاية، وغالبا ما يحكم على مرتكبيها برد المبلغ المستحق، مع نسبة فائدة مرتفعة. ومن الممكن أن تأخذ الأحكام صورة دفع التعويض الإجبارى، أو الغرامات، أو السجن، أو العمل الإجبارى، أو النفى إلى النوبة، أو مصادرة الممتلكات، والعقوبة الأشد، هى الإعدام. ويعاقب المجرمون العاديون بالضرب، أو الجلد، أو تشويه الملامح، أو البتر. وكانت المظالم تقدم بواسطة المواطنين، فتفتح تحقيقات، تؤدى إلى استجواب واستقصاءات حول خلفية المتهم وتاريخه.

وكثيرا ما تدخلت السلطات الدينية فى القضايا الثانوية، حيث يستدعى وسطاء روحيون لتسوية النزاعات، أو للمساعدة فى الإمساك بالمجرمين. وحدثت إحدى هذه القضايا المدونة على البردى، خلال عصر الدولة الحديثة، عندما اعتقد أن تمثال «آمون» حل لغز جريمة بشأن عامل اسمه «بيتجو-إم-دى-آمون»، خلال مهرجان عيد

«أوبت» فى أواست. حيث سرقت خمس قطع من الملابس من مخزن للملابس أثناء نوم الحارس. فبعد تلاوة أسماء عدة مشتبه بهم، أوما تمثال آمون ـ باعتباره وسيطا روحيا ـ عند ذكر اسم العامل، الذى أصر أنه برىء، وطالب بالحصول على (أو على الأرجح تضرع من أجل) فرصة أخرى مع وسيط روحى آخر. وأكد الوسيط الثانى حكم الأول. ثم أكد الحكم وسيط ثالث، وبعد أن ضرب المتهم مئة مرة بجريدة نخل، اعترف ووافق على إعادة الملابس المسروقة. وأمرته المحكمة أن يقسم بأنه لن يتراجع عن وعده، وإلا ألقى به إلى التماسيح.

وكثيرا ما تولى ضباط الجيش أمر تنفيذ القانون. وخلال عصر الدولة الوسطى أو بداية عصر الاضمحلال الثانى، كان أفراد «فيالق الصحراء» يجندون من أبناء النوبة، وعرفوا باسم«مدچاى». وخلال عصر الأسرة السابعة عشرة، كان أفراد قوات «مدچاى» يوصفون بأنهم محاربون ممتازون ذوو قوة هائلة ومهارة. وبحلول عصر الدولة الحديثة، صار هؤلاء الرجال الأشداء الذين عاشوا فى الصحراء مرادفا لمفهوم «الشرطة» حاليا. وخلال عصر الأسرة الثامنة عشرة، اتهم «مينا» القائد الأعلى لقوات «مدچاى» واسمه «مينت موس»، بعدم الوفاء بدين مستحق له، ورفع «مينا» الدعوى إلى المحكمة؛ واستمر نظر القضية ١٨ عاما، وفى آخر الأمر تم التوصل إلى تسوية القضية من خلال تبادل سلع.

وأدى الفساد والنهب إلى شلل فى أحوال الدولة خلال الأسرتين العشرين والحادية والعشرين. ويقال أنه خلال هذه الفترة غاب احترام الموتى، ونهبت ممتلكاتهم، حيث سرقتها من مقابرهم عصابات منظمة من المجرمين. وفى عهد «رعمسيس التاسع» (الأسرة العشرين)، أجريت محاكمة خاصة بنهب مقبرة. وتظهر هذه المحاكمة ضعف الحكومة، وسلطة الملك، والقانون فى تلك الأيام. حيث طلب«پاسر»، وهو وزير ومن كبار كهنة آمون، إجراء تحقيق بشأن عمليات سطو على مقابر قام بها أمير ومسئول كبير اسمه «پويرو» بالتواطؤ مع مسئولين آخرين. وواجه «پاسر» تهديدات عديدة، وإهانات من «پويرو»، الذى تصادف أيضا أن كان حاكم البر الغربى من «أواست» ورئيس شرطة مدينة الموتى فى ذلك الوقت. وتبين أن عدة مسئولين ذوى مراكز عليا مذنبون؛ ومع ذلك لم يعرف مصير «پويرو». ووصفت أحداث المحاكمة فى بردية «أبوت وأمهرست».

## سارق الكنز

نختم هذا الباب بقصة مصرية شعبية بعنوان «سارق الكنز»، التى يعتقد أنها وقعت فى عهد رمسيس الثالث، الذى نجح فى صد غزوات الأعداء من البلاد الأجنبية، واتسعت المشروعات التى بنتها الدولة، وأرسل العديد من البعثات التجارية. وجمع الفرعون ثروة طائلة، حتى أنه احتاج خزانة خاصة لحفظ هذه النفائس. فاستدعى وزيره وكبير بنائيه «حور محب»، وأمره ببناء خزانة ضخمة من الأحجار المتينة، لها أكثر الجدران سمكا، بما لا يسمح بدخول أى شخص بشكل غير مشروع لهذا البناء.

وسر «حور محب» بمهمته الجديدة بالغة الاحترام، وشرع فى تصميمات بناء الخزانة. وبأوامر منه جند أفضل البنائين المصريين للعمل ليلا ونهارا فى هذا المشروع العظيم (وهو مازال باقيا حتى الآن ويعرف باسم مجمع مدافن مدينة هابو). وما أن اكتمل بناء هذا السرداب الشاسع الفخم، حتى أودعت فيه نفائس «رعمسيس الثالث». وزودت الأبواب المصنوعة من الحجر والحديد والبرونز، بأثقل أقفال يمكن تصورها، وختمت بالختم الملكى الخاص بالفرعون.

بيد أن «حور محب» كان قد بنى، بغير علم الفرعون (وأى شخص آخر) ممرا سريا على نحو بارع؛ بنية منح نفسه مكافأة إضافية فوق ما سيحصل عليه من الفرعون بمجرد انتهاء العمل. ولكن «حور محب» سقط مريضا عقب قليل من انتهاء المشروع. فاستدعى ولديه، وكشف لهم من على فراش موته، موضع الممر السرى. وحذا الولدان حذوه، فقاما بقليل من الرحلات السريعة للتنقيب فى خزانة الملك. وفى نفس الوقت، تصادف أن اكتشف الفرعون، أن كنوزه تتناقص، على نحو غامض، بشكل طفيف ومتكرر؛ من دون فض الأختام الملكية، فدهش الفرعون تماما؛ كيف تختفى نفائسه ببطء؟ وبدافع من إحباطه، وضع عدة فخاخ داخل الخزانة.

وفى اليوم الذى انتوى الشقيقان أن يشهد آخر غزواتهما للخزانة، زلت قدم أصغرهما وسقط فى الفخ الذى وضعه الفرعون. ولم يكن ثمة من سبيل لإخراجه- فقد سقط على ساقيه جلمود صخر ضخم سحقهما، وتركه فى عذاب مقيم. وكانت الصخرة أثقل كثيرا من أن يستطيع شقيقه تحريكها ولو على نحو طفيف. وصار مثبتا فى الأرض بلا أمل فى الإنقاذ. وتوسل الصغير لشقيقه أن يخلصه من مصيبته، وأصر عليه

أن يقتله، لأنه لم يعد بقادر على احتمال المزيد من الألم. وتردد الشقيق الأكبر، لكن الصغير حثه على الإسراع، مضيفا أنه سيكون من الأفضل لواحد منهما على الأقل أن يستفيد من الكنز، لأنه فى حال اكتشاف أمرهما فمن المؤكد أنهما سيعدمان لقاء هذه الجريمة. واقتنع الكبير بمنطق أخيه، وسحب سيفه وذبح أخيه. ولأنه لن يمكن التعرف على جثة بلا رأس، ومن ثم تصبح الأسرة بعيدة عن الاشتباه، رحل الشقيق بكل ما أوتى من حذر، حاملا فى يديه رأس أخيه.

وفى اليوم التالى، جاء الفرعون مرة أخرى، ليمتع عينيه بنفائسه ويعدها. وارتاع عندما أبصر أمامه جسدا بلا رأس يرقد محطما داخل شركه. غير أنه ظل حائرا، حيث وجد الأختام كما هى لم تمس. فأمر رجاله بتعليق الجثة فى القرية مع السجناء الآخرين. وكان الفرعون يأمل أن تحاول أسرة المتوفى استعادة الجسد لتضمن له دفنا معقولا نسبيا - ومن ثم تنكشف هوية السارق. وتمركز الجنود على مقربة، ولكن بعيدا عن أعين الناس، على أهبة الاستعداد للقبض على أسرة اللص. وعندما سمعت زوجة «حور محب» بما حدث، توسلت إلى ولدها الباقى ليعيد جسد أخيه حتى يدفن على نحو ملائم. فتعهد بتلبية رغبة أمه، حيث لم يكن هناك سبيل آخر ليضمن لأخيه فرصة السلام والخلود فى العالم الآخر.

وتنكر فى ملابس تاجر وحمَّل بغلين بقرَب من جلد الماعز مليئة بالنبيذ. وفى طريقه لوسط القرية حيث جثة أخيه معلقة فى خزى علنى، افتعل حادثة لتنقلب القرب وينسكب السائل على الأرض. وأثار حالة من الاضطراب على النحو الذى جذب انتباه الجنود المختبئين على مقربة، فجاءوا لتقديم يد العون. بينما قام هو بأداء دور الضحية المرتبك، وشرع يحادث الجنود، الذين سرتهم الحادثة للغاية. و بينما حرص على أن يظل منتبها، أخذ يقدم للحراس فى إلحاح المزيد والمزيد من النبيذ، قائلا أنه كان سيخسره على أى حال. ولم يمض وقت طويل حتى فقد الحراس وعيهم.

وعندما هبط المساء، وصار وسط المدينة معتما كعيون الحرس، قطع اللص الحبال، وسقط جثمان أخيه على الأرض. فلف الجسد فى قماش نظيف من الكتان وحمله على ظهر أحد بغليه إلى البيت. وتمت عملية الدفن بنجاح مع ظهور أول أشعة الشمس فى طريقها إلى الأفق.

وحين بلغ الفرعون نبأ سرقة الجثة، ثار بشدة، وأمر بضرب الحراس واحدا إثر الآخر بسبب غفلتهم. ولم يكن ليرتاح قبل أن يكشف هوية اللص. فوضع خطة بارعة أخرى، بمساعدة ومشاركة إحدى بناته. حيث عرض الزواج من ابنته مكافأة لمن يكشف للأميرة أدهى الأعمال التى اقترفها وأكثرها شرا. وكان الفرعون يأمل أن يوقع باللص، غير أن ابن «حور محب» لم يكن أحمقا، واشتبه فى الخدعة التى تكمن وراء هذا الطلب العجيب.

وقرر اللص أن يفوق الفرعون دهاء، فقطع ذراعا لأحد المساجين الذين نفذ فيهم حكم القتل وعلقوا فى وسط المدينة، وأخفاها تحت عباءته. ثم ذهب إلى القصر طالبا السماح بزيارة الأميرة، وقص عليها قصة أعماله غير المشروعة، فما أن سمعت القصة، حتى صرخت منادية الجنود الذين كانوا مختبئين فى مكان قريب ليقبضوا على اللص. وتشبثت بذراعه لتمنعه من الفرار. غير أنها وجدت نفسها ممسكة بذراع مبتورة من رجل ميت، بينما انطلق اللص فى عتمة الليل.

وعندما سمع «رعمسيس الثالث» بالحادثة، تأثر بجرأة وبراعة اللص، الذى جرؤ على أن يتفوق على الفرعون حيلة ودهاء. وأدرك أنه، على الأقل، عثر على واحد من أكثر الرجال دهاء فى مصر؛ وأن حذق الرجل الماكر قيمة عالية ينبغى ألا تبدد. فأصدر عفوا عاما عنه وأعلن أن اللص البارع تم تبرئته، وسينال مكافأة إذا اختار أن يخدم الفرعون بصدق وولاء، لأن مصر معروفة برجالها الحكماء، ومهارة هذا الشخص ستفيد المملكة.

وهكذا، كشف سارق الخزانة عن شخصيته، وتزوج الأميرة بالفعل، وكوفئ بمنصب حكومى كخادم مخلص لرعمسيس الثالث.

***